



فلاسفة العرب



ابن خلدون



مَكْتَبَةُ  
لِسَانِ الْعَرَبِ

[www.lisanarb.com](http://www.lisanarb.com)

يوجن تمير

مقدمة  
ابن خلدون

دراسة - مختارات

طبعه ثالثة منقحة

منشورات الطيبة الكاثوليكية - بيروت

توزيع المكتبة الشرقية - ساحة النجمة - بيروت

B  
741  
Q98  
4.3

B 925140  
X  
✓.PK



لبران

ابه خلدونه

# ابن خلدون

١٤٠٦-١٣٣٢

٨٠٨-٧٣٢ هـ

## سيرته

هو عبد الرحمن بن محمد ، ... بن خلدون .  
جده يبني من عرب حضرموت اتى الاندلس بعد الفتح في رهط  
من قومه ، واستقر في اشبيلية . ثم انتقلت الاسرة الى تونس ، وفيها  
اقيمت الى مولد مؤلفنا .

روى لنا ابن خلدون قصة الشطر الاكبر من حياته رواية مسهبة  
والليك خلاصة تلك الحياة في نوافي خطوطها :

### ١ - في تونس : حداة ودروس :

ولد ابن خلدون في تونس غرة رمضان سنة ٧٣٢ هـ . وفيها درس  
العربية ، والقرآن ، والفقه ، والحديث ، ودرس « العلوم العقلية والمنطق  
وسائر الفنون الحكمية والتعليمية » .  
ثم كان طاعون جارف هلك فيه ابواه ، واذا به يسعى الى عمل ،  
ويطمح الى مجد .

### ٢ - على دروب السياسة : (١٣٥١-١٣٧٤-٧٥٢-٦٧٦) :

في بيته انقسمت سياسياً الى امارات متنافسة ، متنازعة ، حاول  
ابن خلدون ان يجد اولاً مورداً للعيش ، ثم ان يتقرب من الامراء

نديماً في المجالس ، او عوناً في ادارة شؤون الملك ، لا يعرف للطموح حدّاً ، ولا يتورع في الوصول امام وسيلة .

واول ما تقلّد من وظائف كان كتابة العالمة عن اي اسحق ، سلطان تونس ، وهي « الحمد لله والشكر لله ، بالقلم الغليظ ، ما بين البسملة وما بعدها من مخاطبة او مرسوم » ، تقلّدتها سنة ١٣٥١ (٧٥٢).<sup>٥</sup>

ثم قادته الاحداث الى مراكش ، وذكر لابي عنان ، سلطان فاس ، فاستقدمه هذا اليه سنة ١٣٥٥ (٧٥٦)<sup>٥</sup> ، ونظمه في مجلسه ، واستعمله في كتابة سره والتوقع بين يديه . ولم ترق الوظيفة لابن خلدون ، فاشترك في تدبير موامر ضد السلطان ... وامسك ، وسجن . على انه سجن لم يطل ، فقد مات السلطان ابو عنان سنة ١٣٥٧ (٧٥٩)<sup>٥</sup> ، واطلق سراح المغامر .

وسنة ١٣٥٨ (٧٦٠)<sup>٥</sup> ، اتّخذه ابو سالم ، سلطان فاس ، كتاباً لسره وولاه خطة المظالم . وثار الوزير عمر بن عبدالله ، وخلع السلطان ابا سالم ، واستولى على العرش . وكان بين الوزير عمر وابن خلدون سابق موعد ، فاقر ابن خلدون على ما كان عليه ، وزاد في جراحته . على ان ادلال ابن خلدون ، وطموحه الى ما يحوز حده ، دفعا السلطان الى الاعراض عنه ، ودفعاه هو الى السفر الى غرناطة .

اتى ابن خلدون غرناطة سنة ١٣٦٢ (٧٦٤)<sup>٥</sup> ، فرحب به صديقه ، السلطان ابن الاحمر ووزيره ابن الخطيب ، ثم نظمه السلطان في علية مجلسه ، واقطعه قرية البيره (Elvira) .

على انها نعمة لم تطل ، فقد احس ابن خلدون غيره لدى ابن الخطيب ، وخشي العواقب ، وجاءته دعوة من ابي عبدالله ، سلطان بجاية ، فاستأذن ابن الاحمر بالرحيل ، واتى بجاية سنة ١٣٦٤ (٧٦٦)<sup>٥</sup> .

واستقبله سلطان بجاية باحتفال بالغ ، ثم قلده شهون الوزارة ، وقدّمه للخطابة في الجامع .

على ان السلطان ما لبث ان قتل ، وابن خلدون ما لبث ان ترك بجاية ، وسار متقدلاً من امير الى امير ، مشائعاً متآمراً ، الى ان انتهى به المطاف ثانية الى غرناطة سنة ١٣٧٤ (٥٧٧٦) هـ .

على ان ابن الاحمر كان حانقاً عليه هذه المرة — لاتصال حدث بيته وبين ابن الخطيب في فترة جفاء بين السلطان والوزير — فاعاده من حيث جاء .

### ٣ — في مناسك العلم :

وكان ابن خلدون تعب من السياسة ، وخشي عوقيها ، فاذا به يعتزلا ، لينزل في قلعة اولاد سلامه ، ويشرع في تأليف كتابه في التاريخ . قال ابن خلدون : « اقت بها <sup>١١</sup> اربعة اعوام متخللاً عن الشواغل ، وشرعت في تأليف هذا الكتاب ، وانا مقيم بها ، واكملت المقدمة على ذلك النحو الغريب الذي اهتديت اليه في تلك الخلوة ، فسالت فيها شأيب الكلام ومعاني على الفكر ، حتى امتحضت زبدتها وتألفت نتائجها » .

وطرق ابن خلدون مرض ارى على البنية ، وجد <sup>٢</sup> فيه حنين الى تونس وطنه ، واحس الحاجة الى كتب ودواين لا توجد الا في الامصار ، فعاد الى تونس سنة ١٣٧٨ (٥٧٨٠) هـ . وفي تونس رعاه السلطان بعناته ، وحثه على تأليف كتابه ، فاكمل منه اخبار البربر وزنانة ، واخبار الدولتين وما قبل الاسلام ، ورفع نسخة الى السلطان .

ويشير عطف السلطان حسد البطانة ، فتكثّر السعاية ضد ابن خلدون وتضطّرره الى مغادرة وطنه ، ومغادرة المغرب نهائياً سنة ١٣٧٢ (٥٧٨٤) هـ .

(١) قلعة اولاد سلامه .

## ٤ - في القاهرة :

استاذن ابن خلدون سلطان تونس للقيام بفريضة الحج ، واتى الاسكندرية فالقاهرة . وفي القاهرة علم في الازهر ، وتولى القضاء ، ورعاه السلطان بعناته . واثناء اقامته فيها ، اصيب بغرق عائلته ، وهي طريقها اليه ، وقام بفريضة الحج ، وقرأ ، وألف ... ثم مات في ١٥ آذار ١٤٠٦ (٢٥ رمضان ٧٠٨) <sup>٥</sup> .

عاش ابن خلدون في بيته سياسية قلقة كل القلق ، ودفعه ذكاء وطموح ، فاذا به يغامر ويؤامر ، يعاشر ويخوض ، يلقى الحفاوة والتقدير ، ويلقى الحسد والاعراض والسجن . لقد جاب الغرب ، وقام برحلتين الى الاندلس ، وكان له في كل نزاع هوى ، حتى اذا ضاق به المغرب ، وتجهمت في وجهه الاندلس ، انقطع الى العلم والتأليف ، يوّلُف في قلعة اولاد سلامه ، ويوّلُف في تونس ، ثم يرحل الى القاهرة يزاول القضاء او ينشر العلم ، يذهب الى حج او يعكف على عزلة ودرس . كل ذاك اطلعه على السياسة وتقلباتها ، وعلى العالم الاسلامي ، عربه وبربره ، بدوه وحضره ، فكان افضل باعث له ومعين على وضع كتابه في التاريخ :

كتاب العبر  
وديوان المبتدأ والخبر  
في ایام العرب والعمج والبربر  
ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاکبر .

والكتاب مقدمات في التاريخ ، ثم كتاب اول في علم العمارة ، وكتاب آخران في التاريخ . وان ما يهمنا منه هو المقدمات العامة والكتاب الاول ، اي ما عرف بمقدمة ابن خلدون ، وسيدور درسنا اذا حول اثنين : التاريخ وعلم العمارة .

في التَّارِيخ

ما التاريخ؟

يحدد ابن خلدون التاريخ بأنه « خبر عن الاجتماع الانساني » ،  
عما يعرض لهذا الاجتماع من بدأوة وحضارة ، من حروب وسياسة ،  
من اقتصاد وعلوم ، وبنوع عام عن كل ما يحدث فيه من احوال .

ظاهر التاريخ وباطنه :

علي ان للتاريخ ظاهراً وباطناً.

ظاهر التاريخ خبر عن ماضي الانسان تُطرف به الاندية ،  
ويتساوى في فهمه العالم والجاهل .

اما باطنه فثبتت من صحة الخبر ، بحث عن اسباب الواقع ، وتأكّد من امكانها ، فهو «لذلك اصيل في الحكمة عريق ، وجدير بان يُعدّ في علومها وخلقيّها». يؤمن ابن خلدون بالجبر التاريخي ، بان الواقع التاريخ خاضعة لقانون السبيبة ، فعمرقة المجتمع في مختلف احواله معرفة لما يجده فيه من اسباب ، وينتج من نتائج ، وبالتالي معرفة لما يحدث فيه او لا يحدث ، بل لما يمكن حدوثه او لا يمكن .

مؤرخو الاسلام وابن خلدون :

ويرى ابن خلدون أن مؤرخي الإسلام ما تجاوزوا ظاهر التاريخ، فاكتفوا بنقل الأخبار، صادقها وكاذبها، لا يعلّمون ولا ينقدون، فاتت روایاتهم مخلوطة بدسائس من الباطل، وزخارف من الحكايات وترهات من الأحاديث.

اما هو فيقدم على وضع التاريخ ، ومهما باطنه ، اي تعليل الاخبار وتحقيقها ، حتى تأتي سليمة من الكذب ، حالية من الغلط.

### مغالط المؤرخين :

ولكن ما اهم اسباب الخطأ والكذب في التاريخ؟ يعدد ابن خلدون هذه الاسباب ، انا يمكن ردّها الى اربعة :

الاول هو التغافل على كتابة التاريخ : يحتاج المؤرخ الى معارف متعددة ، وماخذ متعددة ، ويحتاج الى حسن نظر ودقة نقد وتعليق ، فلا يقدم على وضع التاريخ من ليس يتصرف بكل هذه الصفات .

والسبب الثاني هو التشيع : ان التشيع لرأي او مذهب غطاء على العين يحيد بالنفس عن الاعتدال ، ويسوقها الى قبول ما وافق هواها ، دون ترثي او انتقاد . وقل مثل ذلك في تقرب المؤرخ من اصحاب المزاج بالثناء الكاذب ، طمعاً في ثروة ، او طلباً لجاه .

والسبب الثالث هو الثقة بالناقلين : ان ناقل الخبر قد يكون متشيئاً ، وقد يكون واهماً ذهل عن غاية ما رأى ، والتبس عليه ما عاين ، فيكذب لذلك او يغلط ، فعلى المؤرخ الا يثق بكل ناقل ، دون التثبت من سلامته نظرة ، وحسن اطلاعه .

والسبب الرابع والاهم هو الجهل بطبيعة العمran : التاريخ خبر عمما يحدث في العمran البشري ، فمن اهم صفات المؤرخ معرفة هذا العمran . ان المجتمعات البشرية تتشابه ، لأن الطبيعة البشرية واحدة ، فمعرفة الحاضر تهدي الى معرفة الغابر والآتي . ولكن المجتمعات تتباين ايضاً : تتباين باختلاف ما تخضع له من حر او برد ، من فقر او غنى ، وتتباين باختلاف الطور الذي تمرّ به من بداوة او حضارة . فمعرفة طبيعة المجتمع ، وما تتفق به المجتمعات وتختلف ، يمكن المؤرخ من معرفة ما يمكن حدوثه في مجتمع معين وما يستحيل ، وبالتالي من تمييز الصدق من الكذب .

وَمَا عَلِمَ الْعُمَرَانَ ، الَّذِي يَتَكَبَّرُهُ ابْنُ خَلْدُونَ ، وَيَضْمِنُهُ الْكِتَابُ  
 الْأَوَّلُ مِنْ تَارِيْخِهِ ، سُوَى درسِ الْمَجَمِعِ فِي تَكُونِهِ ، وَبِيَثْتِهِ ، وَتَطْوِرِهِ ،  
 وَفِي مَا يُعْرَضُ لَهُ مِنْ أَحْوَالٍ ، وَيَخْضُعُ مِنْ قَوَاعِدٍ ، حَتَّى إِذَا أَطْلَعَ  
 الْمُؤْرِخَ عَلَيْهِ مِيزَّ فِي الْأَخْبَارِ بَيْنَ الْمَمْكُنِ وَالْمُسْتَحِيلِ ، وَبَيْنَ الْخَطَا  
 وَالصَّوَابِ<sup>١)</sup>.

---

١) كتب ابن خلدون مقدمته في مدة خمسة أشهر آخرها منتصف عام ٧٧٩ هـ.

## علم العمران

سرى في آخر هذه الدراسة ، كيف حدد ابن خلدون علم العمران ، وما شبه هذا العلم بعلوم عصرنا .

اما الان فندرس ما ضمن ابن خلدون هذا العلم ، ندرس على التوالي :

- ١ العمران البشري على الجملة .
- ٢ العمران البدوي .
- ٣ العمران الحضري .

## العمران البَشري على أجمَلِه

ضرورة الاجتماع والسلطة :

موضوع علم العمران المجتمع الانساني ، ولكن كيف تكون المجتمع ؟

ان الاجتماع الانساني ضروري ، وهو ما سبق فايته فلاسفة اليونان والاسلام ، وعبروا عنه بقولهم : « الانسان مدنى بالطبع » .

وهذه الضرورة ناتجة عن حاجتين ، حاجة الانسان الى الغذاء وحاجته الى الدفاع عن نفسه ، وكلتاها لا تتم الا بالتعاون . ان قوت يوم من الخطة ، مثلاً ، لا يحصل الا بعلاج من الطحن والعنجه والطبخ ، وكل من هذه الاعمال الثلاثة يحتاج الى مواعين وآلات لا تم الا بصناع عديدين من حداد ونجار وفاخوري ، عدا عما يحتاج اليه في تحصيل الخطة من زراعة ومحاصد ودراس الى غير ذلك . ثم لما كان العدوان طبيعياً في الحيوان ، وكان الانسان عاجزاً عن دفع الحيوانات المفترسة ، احتاج الى آلات تنبه له عن جوارح الحيوان ، فاحتاج الى الصنائع فالتعاون . فالاجتماع اذاً طبيعى ، ضروري لبقاء النوع .

ولكن في طباع الناس ما في طباع الحيوان من عدوان وظلم ، فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض ، ويقيم العدل ، فيكون ذلك الوازع واحداً منهم ، له عليهم السلطان واليد القاهرة . وزاد بعض الفلاسفة ان ذلك الحكم الوازع لا يتم له التسليم والقبول الا اذا فرضه شرع المي ، واستنتجوا من ذلك ضرورة النبوة . ويرى ابن خلدون ان

هذه القضية غير برهانية ، فالحاكم يفرض سلطته بصفاته او بعصبيته ، واكثر اهل العالم لم يكن لهم كتاب اونبي ، وكانت لهم الدول والملوك.

### اثر الاقليم :

واذا تكون المجتمع ، تكون في اقليم من الارض معلوم ، وكان ذلك اول سبب لتبادر المجتمعات .

ان الارض ، في عرف الاقدمين ، كروية الشكل ، محفوفة ببحار محيط ، فكأنها عنبة طافية على المياه . وان ما انكشف منها لنصف كرتها ، او اقل ، وان ما عمر منها نحو ربع ما انكشف . وقسموا الشطر المعمور الى سبعة اقاليم ، اولها خط الاستواء في الجنوب ، وآخرها الاقليم السابع في الشمال . ليس وراء الاقاليم السبعة عمران<sup>١)</sup> ، للبعد عن الاعتدال ، وهي تدرج من اقصى الحر في الجنوب الى اقصى البرد في الشمال . فالاقليم الرابع اكثر الاقاليم اعتدالا ، ويقرب منه الثالث والخامس ، اما باقي الاقاليم فبعيدة عن الاعتدال لافراطها في الحر او البرد .

وان للاقليم اثراً عميقاً في المجتمع ، يظهر في الأجسام والعقول والأخلاق ، وبالتالي في مختلف نواحي الحياة .

ان اهل الاقاليم الثلاثة الوسطى ارق علماء ، وصناع ، وملابس ، واقوافاً ، وافضل اجساماً ، والوانا ، واخلاقاً ، واديانا . والنبوات نفسها وجدت فيها ، لأن الانبياء اكمل النوع ، وان شذت جزيرة العرب – وهي في الاقليم الاول والثاني – فلأن البحر احاطت بها ، فصار فيها بعض اعتدال .

اما باقي الاقاليم فاهلها بعد عن الاعتدال في جميع احوالهم . العلم

١) ليس وراء الاقليم السابع عمران ، وليس وراء الاقليم الاول الا « الففار والرمال ، وبعض عمارة ان صحت فهي كلام عمارة » .

مفقود ، والذين مبهول ، والتوجه غالب . بناً لهم طين وقصب ، ولباسهم اوراق شجر او جلد ، واقواتهم ذرة وعشب ، وربما اكل بعضهم بعضاً .

ويختلف اهل الجنوب عن اهل الشمال ، لاختلاف الماء . فاهل الجنوب سودان ، موصوفون بالخلفه والطيش والحمق ، مولعون بالطرب والرقص ، واهل الشمال بيض ، زرق العيون ، صهب الشعور ، مطرقون اطراق الحزن ، مفرطون في نظر العواقب وادخار الاقوات . وغفل من حسب اختلاف الالوان من اختلاف النسب ، او علل خفة السودان وطيشهم بضعف عقولهم . هو الحر يحدث في الجلد سواداً ، وفي المزاج نشوة وسروراً ، وهو البرد يبيض اللون ويقبض النفس . والبرد بعد افضل من الحر ، واحفظ للانسان ، لهذا كان العمران في الشمال اوفر منه في الجنوب .

#### اثر التربة :

وبسبب ثانٍ لتبين المجتمعات هو تباين تربتها في الخصب .  
ان للخصب اثراً سيئاً في المجتمع ، والفقير افضل للناس لو يعلموه .  
يتغذى سكان البقاع الخصبة بالحبوب والخنطة والفواكه ، لهم منها ما شاؤوا ، فتوليد كثرة الاغذية فضلات رديئة في اجسامهم ، وينشأ عن ذلك انكساف في اللون ، وضخامة في الجسم ، وقع في الشكل ، وببلاده وغفلة .

اما اهل القفار فاقواتهم الالبان والمحوم ، يعيشون على الاقلال ، فتصفو جلتهم . هم احسن اجساماً ، وافضل اخلاقاً ، وائقب اذهاناً ، والواهم اصفى ، وابداهم انقى ، واسكالهم اتم .

الا اعتبر ذلك في حيوان القفر ومواطن الجدب مع امثاله من حيوان

الارياف والمراعي الخصبة ، تجد فرقاً في صفاء الاديم ، وحسن الرونق ، وتناسب الاعضاء ، فالغزال اخو المعز ، والزرافة اخو البعير ، والبؤن يبنها ما تعلم .

واللخصب اثره السيء حتى في الدين ، فالمتفشون ، المتجاهرون عن الملاذ ، متدينون مقبلون على العبادة ، متزهدون في البوادي ، بينما نجد اهل الدين قليلين بين المترفين وسكان المدن والامصار .

ويرى ابن خلدون اثراً للجوع في صفاء الذهن ، واعداد المتصوفين الى الاتصال بعالم الروح ، فيتوقف غير قليل على كل ما يتصل بعالم الغيب من نبوة ، وكمانة ، ورؤيا ، وعراقة ، مردداً ما قاله الفلاسفة السابقون من قدرة بعض النفوس على الانسلاخ من عالم الحس الى عالم الروح . ولن نتوقف معه على مثل هذه المواضيع ، لقلة ابتكاره فيها ، وضعف صلتها بموضوعه العام .

## ٠

هواء الاقليم وغناه سببان خارجيان يتکيف بهما مجتمع ما ، فيختلف عن باقي المجتمعات . على ان هناك اسباباً ذاتية تعرض لكل مجتمع ، في اي اقليم كان ، او اي تربة استقر ، فتبدله من حال الى حال . الاسباب الخارجية تميز بين مجتمع ومجتمع . اما الاسباب الذاتية فطبيعية لكل المجتمعات يتميز بها مجتمع في طور ما عنه في طور آخر . وانا لندرس مع ابن خلدون المجتمع في طورين اساسيين من كيانه ، طور البداوة وطور الحضارة .

## العِمَرَانُ الْبَدَوِيُّ

**البداوة قبل الحضارة :**

اما البداوة فطور طبيعي سابق على الحضارة . ذلك ان البدو مقتصرة على الضروري في احوالهم من اقوات وملابس ومساكن ، عاجزون عن كمال الحضر في علومهم وصناعتهم وصروحهم ، بعيدون عنهم في انتقاء ملبوس ، واستجادة مطبخ ، واحتياط مدن . وان الضروري لأقدم من الكمال وسابق عليه ، فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة ونزوع اليها .

اما البدو فأنواع ، بعضهم يعيش من الزراعة ، وبعضهم يعيش من السائمة كالغنم والبقر ، وبعضهم من الابل . والعائشون من الابل اكثر ظعناء ، وابعد في الفقر مجالاً ، وانفر عن الاصناف ، واشد توحشاً ، كما هو شأن العرب وامثالهم .

**القبيلة :**

وان القبيلة لنواة البدو الاجتماعية ، فيها يقيمون ، ومعها يرحلون ، صدورهم لها اسوار ، ودمهم فداء .

وانهم ما تعاضدوا وتناصروا الا لان صلة تجمعهم ، ونعرة تدفعهم ، بها يؤمنون التخاذل في حرب ، والعدوان من ظالم ، الا وهي العصبية . والعصبية صلة نسب – وقد تنتهي عن حلف او ولاء – تحدث بين اهل الارحام لحمة ، ومن ظلم النسيب غضاضة ، والى نصرته دافعاً . انها لنعرة تناصر ، حافظة لكيان القبيلة ، ذاتدة عن حياة الافراد ،

بها يتم الغلب ، وبها يحمل الناس على ما يحملون عليه من نبوة او اقامة ملك .

وان القبيلة مجتمع بشرى ، تحتاج الى حكم وارع يضع العدل ، ويقود الناس . ولا كانت السلطة بالغلب ، كان اقوى القبيلة عصبية " خاصة " ، وامنعوا اسرة ، واكللها صفات ، اقدرها على الرئاسة والقهر ، فخافه الناس وتبعوه ، وعلا في اعينهم فاجلوه .

على ان للرئاسة نشأة وزوالا ، فهي كائن فاسد ككل عوارض الحياة . وانما نهايتها في العقب الواحد اربعة اجيال قلما تجاوزتها او قصرت عنها . ذاك ان باني المجد عالم بما عاناه في بنائه ، محافظ على الخلل التي هي اسباب كونه وبقائه . وابنه من بعده مباشر له ، سامع بما عاناه ، الا انه مقصّر عنه تقصير السامع بالشيء عن المعاني له . اما الثالث فحظه الاقتضاء ، مقصّر عن الثاني تقصير المقلد عن المتجدد . حتى اذا جاء الرابع توهم ان ذلك البناء كان منذ اول النشأة بمجرد انتساب ، لا بمعناهه وتتكلف ، فاضاع الخلل الحافظة لبناء المجد ، واحتقر اهل عصبيته ، فنفروا منه الى سواه من اهل ذلك المنبت ، فتدوی فروع وتنمو فروع . وهكذا يدثر كل حسب في اربعة اباء : بان ، ومبادر له ، ومقلد ، وهادم .

### اخلاق البدو :

وللبدو خلال يفضلون بها الحضر ، حاصلة عن فقرهم ، وحياة الباادية .

ان البدو اقرب الى الخير من الحضر : ذاك ان النفس متيبة فطرياً لقبول ما ينطبع فيها من خير او شر ، فان سبق اليها خلق الخير انطبع عليها ، وان سبق خلق الشر حصلت لها عوائده . والبدو ، لأنهم افقر من الحضر ، امتنع عليهم الترف ، وامتنعت اسباب الشهوات

والملذات ، فاعتادوا على الحرمان ، وسلكوا مسالك الخير ، وابتعدوا عما يتصف به الحضر من مذمومات الخلق ، وطرق الشر . اما اذا غلت القبيلة بعض الغلب ، واستولت على النعمه بمقداره ، فانها تشارك اهل الحضر نعيمهم ، وتغمس في ملاذهم ، وتسكن الى القنوع والدعة ، فتهي اخلاقها ، ويكثر شرها .

والبدو اشجع من الحضر ، لأنهم شبوا على الاعتماد على النفس ، واعتادوا مواجهة الاخطار . بكل الحضر امرهم ، في الدفاع عنهم الى جيش يحميهم ، واسوار تحوطهم ، فيعيشون غارين آمنين ، قد القوا السلاح وتزلوا منزلة النساء والولدان . اما البدو فلا حامية تزود عنهم ، ولا اسوار تصد هجمات العدو ، فكلّهم جيش لدى الدفاع ، يحملون دائمًا السلاح ، ويخوضون المعارك ، فيصبح البأس لهم خلقاً ، والشجاعه سجية . اما اذا اذلَّ القبيلة قويًّا ، وانحض لها سلطان ، فيقعد ذلك بها عن المقاومة والمطالبة ، ويفقدتها الثقة بالنفس ، والجرأة على الاقدام . الا اعتبر ذلك في بني اسرائيل ، فان انتقادهم للقطط احقاً بذهب يأسهم ، وحال دون دخوم الشام اذ دعاهم موسى اليه . وعاقبهم الله باليه اربعين سنة ، ليقى جيل من الذل ، وينشاً جيل آخر عزيز ، لا يعرف الاحكام ، ولا يسام بالضم ، فيقوى على الفتح .

### اخلاق العرب :

وينهي ابن خلدون هذه النظارات العامة في حياة البدو بلمحه في اخلاق العرب خاصة .

العرب يدوُّ رحل لا يستقرُون ولا يبنون . وهذا الخلق رافقهم في الفتح ، فخرّبوا ما وجدوا من بناء ، ينصبون حجارته اثافي ، ويتخذون من خشبها اوتاداً .

والعرب اهل نهبٍ يستهلهونه ، يغزوون الخصم الضعيف ، ويحجمون

امام الخطر . وحين فتحوا وملكوا جعلوا غاياتهم الانتفاع ، فنهبوا ما في ايدي الناس من مال او متع ، وسخروا اصحاب الصنائع لا يرون لاعمالهم اجرأً .

والعرب لا ينقادون لوازع ، او يخضعون لاحكام ، فرئيسهم اليهم يحتاج ، والى ترك مراوغتهم مضطراً . اما اذا حكموا فتسود الفوضى رعایاهم ، وتم المفاسد .

والعرب متنافسون في الرئاسة ، لا يخضع احدهم لغيره ، ولو كان اباه او اخاه . لهذا انقسم العرب الفاتحون ، واختلفت الايدي على الرعية ، وتعدد الحكام والامراء . وانهم لولا نبوة جمعتهم ، وكسرت من كبرهم ومنافستهم ، لما انقادوا لوازع او استطاعوا فتحاً . وانهم ما نسوا الدين حتى عادوا الى سابق عهدهم من فوضى ومنافسة ، ثم غلبوا على امرهم ، فعادوا الى قفارهم بدؤاً متوجهين ، وكأنهم لم يدخلوا الدول ، ولم يكن لهم سلطان .

## العمران الحضري

الانتقال من البداوة الى الحضارة :

البداوة طور طبيعي سابق على الحضارة ، ولكن كيف يتم  
الانتقال من طور الى طور ؟

يرى ابن خلدون ان هذا الانتقال يحدث عن طريقين : طريق  
النحو الاقتصادي ، وطريق الاقتداء بالتحضر .

ينشأ الانسان فقيراً على ارض شحيحة العطاء ، فيجد في البحث  
عن الضروري لمعشه من قوت وملبس ومسكن . ثم تسع به الاحوال ،  
ويحصل فوق ما يحتاج ، فينفق الزائد في الكمال ، في تشيد البيوت  
واقتان بنائهما ، وفي التائق في الملابس والماكل ، وسائل مظاهر العيش .  
ان اجتماع البدو ، « وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمراهم من القوت  
والكن » والدفاعة انما هو بالقدر الذي يحفظ الحياة ، ويحصل بلغة  
العيش من غير مزيد عليه ، للعجز عما وراء ذلك . ثم اذا اتسعت  
احوال هؤلاء المتحلين للمعاش ، وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى  
والرفاه ، دعاهم ذلك الى السكون والدعة ، وتعاونوا في الزائد على  
الضرورة واستكثروا من الاقوات والملابس ، والتائق فيها ، وتوسيعة  
البيوت واحتياط المدن والامصار للتحضر ، ثم تزيد احوال الرفاه والدعة ،  
فتتجيء عوائد الترف البالغة مبالغها .<sup>١١</sup>

اما التحضر عن طريق الاقتداء فيحدث بالفتح : يفتح بدو

دوله متحضرة ، ويقتدون بها ، فيتحضرون ، كما تحضر العرب باستيلائهم على بلاد فارس والروم<sup>١١</sup> .

يتحضر البدو عن طريق الفتح ، ولالفتح اسباب :

الاول قوة الفاتح . ولا تتيهـا القوة القبيلة الا اذا صارت سورة عصبيتها ، واحتفظت بيسها ، وحريتها ، فاقدمت تستتبع القبائل المجاورة ، وتزداد بها قوة حتى تكافيء بقوتها قوة الدولة المرمومة . والدين ، ان وجد ، يكون سبباً في قوة القبيلة ، لأن الدين يذهب بالتنافس والتحاـسـد ، ويوحد الاهواء والغايات ، فيتم التناصر ، وتقوى العصبية ، ويستمـنـتـ الفاتحـون .

والسبب الثاني هو هرم الدولة المرموقة . أما اذا كانت هذه الدولة قوية فلا يتم لقبيلة فتح ، بل قد تنتظمها الدولة في اولياتها تستظهر بها على ما يعن من مقاصدها .

وهكذا اذا احتفظت القبيلة بخلال البداوة من عصبية وشجاعية وحرية ، وقارن انتهاؤها الى قوتها دولة هرمة ، وكان دافع سياسي او ديني - او كلا الدافعين - تم الفتح ، وكان اقتداء الغالب بالغلوب ، وانقل المجتمع من البداوة الى الحضارة .

وللحضارة ظواهر تراافقها من اقتصادية وسياسية ، وثقافية ، فليندرس العمران الحضري في ظواهره ، وفي ما يؤول إليه .

## ١ - الظاهرة الاقتصادية : غنى ورف

البداوة فقر وخسونة عيش ، والحضارة غنى وترف ، فما موارد الغنى في الحضارة ، وما مظاهر الترف وتنتاجه ؟

وجوه المعاش :

وجوه المعاش الطبيعي ثلاثة : الفلاحة والتجارة ، والصناعة .

٦٦) انظر المختارات ص

البدو يعيشون من الفلاحة ، من استثمار ثبات الأرض وحيوانها ،  
اما الحضر فلا يكتفون بها مورد عيش ، بل هم يحتقرنها ، ويترفرون  
عن تعاطيها .

اما التجارة فبدائية لدى البدو ، اساسية في مكاسب الحضر .  
ويبحث ابن خلدون في التجارة ، في صفات التاجر وصفات السلع  
خاصة .

على التاجر ان يكون قوياً كي لا يماطله الماطلون او ينكروا عليه  
ماله . انما لا يجوز ان تكون قوته قاهرة ، ان يتغاضى السلطان نفسه  
التجارة ، لأن الرعية تعجز عن منافسته ، فتتكاسل ، وتتفقر .

والتجارة تدفع صاحبها الى السرقة اما عن طريق الاحتقار ، واما  
عن طريق الغش والكذب ، فتسفل اخلاق التاجر ، وتنحط عن خلق  
الاشراف والملوك . وقل من سلم خلقه ، اما لترفعه عن مباشرة التجارة  
بنفسه ، واستعانته لها بالوكلاء واللحشم ، واما « لشرف نفسه ، وكرم  
جلاله » .

اما افضل السلع فـا عمت اليه الحاجة ، وعز وجوده ، واعتدل  
ثمنه ، فاقبل عليه المشترون ، وكثرت الارباح .

والصناعة ايضاً بدائية بسيطة لدى البدو ، متطرفة مركبة لدى  
الحضر . ان الحضر لا يهملون صنائع البدو البسيطة ، كالحياكة  
والتجارة وغيرها ، ولكنهم يتقنونها وبلغون بها الكمال ، ثم هم يستحدثون  
صنائع كانت مفقودة – او شبه مفقودة – في طور البداوة .

ويقسم ابن خلدون الصنائع الى نوعين : الى ضروري وشريف .  
اما « الضروري فــ كالزراعة ، والبناء ، والخياطة ، والتجارة ، والحياكة .  
واما الشريفة بالموضع فــ كالتمويل ، والكتابة ، والوراقة ، والغناء  
والطــب<sup>(١)</sup> .

(١) المقدمة : ص ٧٢٢ .

ثم هو يرى ان الصنائع تابعة للحضارة تنمو بنموها ، وترسخ برسوخها ، وتكثر بكثرة طالبها . ذاك ان الصنائع ثمرة تفكير ، وحاجة ترف ، واسباب رغبة ، فهي تنمو بنمو العلم ، وعادة الترف ، وكثرة السكان .

ولذاك يرى ابن خلدون ان العرب - ومثلهم عجم المغرب - اعجز الناس عن الصنائع ، لاعراقهم في البداوة ، وان عجم الصين والهند والامم النصرانية اقوم الناس عليها ، لأنهم اعرق في العمران الحضري . وغير ما ذكرناه من وجوه طبيعية للمعاش - من فلاحة وتجارة وصناعة - يذكر ابن خلدون اسباباً اخرى خارجية تعين على الكسب وتنمية .

واول سبب كثرة الساكن ، فكثرة العمran كثرة للاعمال فالثروة ، وانما المكاسب قيم الاعمال الانسانية .

وبسبب ثان هو الجاه ، لأن صاحب الجاه مخدوم ، يتقرب اليه الناس في سبيل التزلف وال الحاجة ، وفقد الجاه بالكلية ، وان غنياً ، لا يكون يساره الا بمقدار ماله ، وعلى نسبة سعيه ، شأن عامة التجار وال فلاحين . وان الفقهاء واهل الدين ، اذا اشتهروا بالتفى ، وحسن بهم الظن ، اعانهم الناس وخدموهم ، وفادوهم ثروة ويساراً .

والتملق مقرب من السلطان ، مفيض للجاه فاما الترفع فخلق ذميم في ارباب العلوم والفنون ، يتوهون في انفسهم الكمال ، وفي الناس الحاجة الى ما يحسنون . وقل مثل ذلك في اهل الانساب يحسبون لهم ما كان لا يائهم من شرف او علم ، وفي اهل الحيلة والبصر بالأمور . كل هؤلاء لا يتملقون لمن هو اعلى منهم ، ويستصغرون من سواهم ، فيمقتهم الناس ، ويعيشون في فقر ، ويؤثر السلطان عليهم في مراتب الدولة سفلة القوم وسوقتهم . وان القائمين بأمور الدين لا تعظم ثروتهم في الغالب ، لأن حاجة الناس اليهم غير

عامة ، ولأنهم ، لشرف بضائعهم ، على الخالق اعزه ، وعن التملق  
نافرون .

### ترف الحضارة :

الحضارة غنى بما تستجدّ من مكاسب ، وترفٌ على قدر ما تكسب .  
يظهر هذا الترف في المساكن ، في بناء البيوت ، واعلاء الصروح ،  
واحتياط المدن . ان البداوة فقر ، وظعن ، اما الحضارة فسعة عيش ،  
وقدرة على الاستقرار ، ونعم في ظلال القصور . ويحتاج البناء الى  
المال ، والى مضاعفة القدر البشرية ، فلا تعظم مباني الدولة الا اذا كثُر  
مالها وعددها ، وتحتاج بعض الآثار الى دول متولية لبنيتها ، فتأتي  
آية في المثانة والعظمة كأيوان كسرى ، واهرام مصر . ولم يبن العرب  
على نسبة قدرتهم ، لأن بدأوا صرفهم ، وفتحا شغفهم ، وديننا نهادهم  
عن الاسراف ، حتى اذا تحضروا وتغلقوا ، وبعد عهدهم بالدين ،  
اشرفت دولتهم على الانفراض ، وقصر الامد .

ويظهر الترف في المأكل والملابس والملاذ ، فيتألق فيها الحضر  
تألقهم في مبانيهم ، يتفتتون ويغالون .

### وللترف آثار سيئة في الخلق وفي الجيش :

ان الترف حاجة الى المال ، وتزداد هذه الحاجة لغلاء الاسعار في  
المدن ، ولل مقابل على مجازاة البيئة ، فتدفع هذه الحاجة الى الغش  
والسرقة ، وتفسد الاخلاق .

ثم ان الترف يضعف الجيش من بابين : يضعفه في بأس أفراده ،  
ويضعفه باستنفاد المال الضروري لقيام جيش كثير العدد ، ضخم  
العتاد .

وهكذا تكون الحضارة ترقاً ، ويكون الترف ضعفاً : ضعفاً في  
الخلق ، وضعفاً في الجيش ، واي دولة ثبتت إن به هذان ؟

٢ - الظاهرة السياسية : منازع الملك وعمر الدولة  
للمجتمع الحضري ، او الدولة ، ملك رئيس ، فما صفاتـه ، وما  
منازعـه ؟

ليست النبوة صفة ضرورية لرئيس الدولة ، لأن السلطة شيء  
طبيعي في البشر .

وليس النسب النبوي شرطاً ضرورياً في رئيس الدولة : ان الخليفة  
قام من قريش ، لا لأنها قبيلة الرسول ، بل لأنها كانت اقوى عصبية  
وأقدر على الحكم .

وليست الفلسفة صفة نافعة للملك ، لأن الفيلسوف معتمد على  
الاحكام العامة ، وعلى مقاييس الامور باشباهها ، وبالتالي مقصـر في  
الحكم على ما هو خاص بشخص او جيل او امة ، وفي مراعاة ما  
يلحق الخارج من احوال خفية تمنع الحاـقـه بشـيـه او مـثـالـه .

ان رئيس الدولة رجل قوي ، قوي بعصبيـتهـ الخاصة ، بالأـعـوانـ  
والاتـابـاعـ ، وقوـيـ بما يـتحـلـىـ بهـ منـ صـفـاتـ توـهـلهـ لـقـيـادـةـ النـاسـ .

### منازع الملك :

اما منازع الملك فيـرـدـهاـ ابنـ خـلـدونـ الىـ ثـلـاثـةـ :

### ١ - الانفراد بالـمـجدـ :

يكون الملك ، اول الدولة ، في اهل العصبية الغالية يـشاـطـرونـ الرئيسـ  
المـجـدـ ، ويـقاـسـمـونـ ثـمـراتـ المـلـكـ . علىـ انـ الانـسـانـ مدـفـوعـ بـطـبعـهـ الىـ  
الاستـشـارـ بالـسلـطةـ ، مدـفـوعـ بـطـبـيعـةـ السـيـاسـةـ التيـ تـقـتـضـيـ وـحدـةـ الـحاـكـمـ ،  
فـاـذـاـ الرـئـيـسـ يـحـاـوـلـ الانـفـرـادـ بـالـمـجـدـ ، وـيـأـنـفـ منـ اـشـراكـ اـهـلـ عـصـبـيـتهـ ،  
فـيـسـعـيـ الىـ اـبـعادـهـ عنـ الـحـكـمـ ، وـيـنـفـرونـ هـمـ منـ ذـلـكـ وـيـقاـومـونـ .  
ويـصـطـنـعـ الرـئـيـسـ الرـجـالـ ، وـيـسـتـعـينـ بـالـموـالـيـ ، فـيـكـبـحـ بـالـعـنـفـ اـهـلـ

عصبيته ، ويجدع انوفهم ، يقهرهم ويدلّهم . يتمّ هذا الغلب للاول من ملوك الدول ، او يتمّ للثاني او الثالث ، ولكنه امر لا مفرّ منه . وبانفراد الملك بالجح تفسد العصبية ، ويضعف السلطان ، ويفوز المولى بمناصب الدولة يأمرون وينهون ، ثم يتطاولون ويستبدون ، ثم يقيمون الملوك ويخلعون .

## ٢ - الترف :

من طبيعة الملك ايضاً الترف في الطعام والملابس ، والفرش ، والآية ، ومفاخرة الامم الأخرى « في اكل الطيب ، وليس الانيق ، وركوب الفاره . »

يحصل هذا الترف بما يسرّ الفتح من ملك ومال ، ودفع اليه الاقتداء بالغلوب من عوائد النعيم ، واقتناء الخلف للسلف من اغراق في كل ذاك .

واثر هذا الترف - كما رأينا - مزدوج : انه يذهب بالمال ، غذاء الجيش عدداً وعتاداً ، فتضعف الحامية ، وانه يدفع الى فساد الخلق ، الى السرقة واشباع الشهوة وكل الوان الشر .

## ٣ - الدعة والسكون :

اذا تمّ الغلب ، وحصل الملك ، واستتبّ الامر ، وقف السعي ، وغلب حب الراحة والسكون ، ورجع جنّي ثمرات الملك من مسكن وملبس ومطعم ، وصار ذلك خلقاً مألوفاً ، وعوائد سائدة .

ويؤدي السكون والدعة الى نسيان عوائد البداوة ، الى زوال الخشونة والباس ، وفقدان خلق الافتراض ، وركوب الرياء ، واقتحام الخطير . تهيي البساطة في الافراد فتهيي في الحامية ، ويهيي السلطان والدولة .

### عمر الدولة :

رأينا منازع الملك ، ورأينا ما تؤدي اليه من مفاسد تضعف الدولة ، وتدفع بها نحو الخرم والدثار .

ركن الدولة القوة ، وقيام القوة عصبية تم بها الفتح ، وجيش باسل عديد ، وخلق نقى سليم .

انفراد الملك بالجند فضاء على العصبية ..

ترف الحضارة - وما يرافقه من دعة وسكون - يضعف بأس الجيش وطموحه ، ويذهب بمال غذائه ، كما يفسد الاخلاق ويقضي على عوائد الخير .

واذا ضعفت الدولة في عصبيتها ، وحاميتها ، وخلفها ، أصبحت عرضة لتفكك يعرو اجزاءها ، او لغاز يغزوها .

ويعيّن ابن خلدون عمرًا طبيعياً للدولة هو عمر الفرد الطبيعي اي ١٢٠ سنة ، او ثلاثة اجيال . الجيل الاول خشونة بداوة واشتراك في المجد ، وقوة الدولة . والجيل الثاني انفراد الملك بالجند ، وترف حضارة ، وبدء الضعف . والجيل الثالث انفراد تام بالجند فقضاء على العصبية ، واستباحار في الترف والسكنون ، فزوال البأس وضعف الحامية ، وهرم الدولة .

يجعل ابن خلدون عمر الدولة ثلاثة اجيال ، ويجعله خمسة اطوار : التقسيم مختلف ، ولكن المحتوى واحد : منازع ملك وهرم دولة .

### ٣ - الظاهرة الثقافية : العلم والتعليم

ظاهرة ثلاثة للحضارة هي العلم .

ان الانسان اذا تفرغ من هوم القوت واللباس ، انصرف الى العلم يلقن عن الماضين ما تركوا ، والى التفكير يستنبط ما استطاع ، فينمو العلم بنمو الغنى والحضارة ، ويعم التعليم .

والعلوم ثلاثة اصناف : لسانية ، ونقلية ، وعقلية .

### العلوم اللسانية :

اركان العلوم اللسانية اربعة : اللغة ، والنحو ، والبيان ، والادب او الاجادة في فن المنظم والمشور .

لا يتفق لشخص الاجادة في النثر والشعر معاً ، الا في النادر ، لانهما من الملكات ، واذا حصلت ملكة ما صناعية ، عسر الحصول على ملكة اخرى من نوعها .

لأحكام صناعة الشعر شروط ، اهمها الحفظ من جنسه ، والاكثر من النظم ، ومراجعة المنظم بال النقد والتنقيح ، وترك الرديء منه ، والعدول عن كثرة المعاني في البيت الواحد ، وربما جعلوا من بواعث الشعر العشق والانتشاء ، كما ذكر ابن رشيق .

وان صناعة النثر والشعر بالالفاظ لا بالمعاني ، لأن المعاني حاصلة لكل ذي فكر ، غير محتاجة الى صناعة ، وإنما الصناعة في حفظ الالفاظ وتركيبها .

### العلوم الدينية :

ومعرفة العلوم اللسانية ضرورية لاهل العلوم النقلية او الدينية .  
والعلوم النقلية مأخوذة عن الكتاب والسنّة ، تحاول فهمها لغة " وعقائد ، وهي : قراءة القرآن وتفسيره ، والفقه ، والكلام ، والحديث . ومن العلوم الشرعية الخادثة علم التصوف ، وتعبير الروايا .

### العلوم العقلية ورأي في الفلسفة :

اما العلوم العقلية فهي ما يهتمي اليه الانسان بفكرة من فلسفة وعلوم .

وهذه العلوم هي : المنطق ، والطبيعتيات ، والاهميات ، وعلوم

المقادير من عدد وهندسة وهيئة وموسيقى . ثم تأتي علوم السحر ، والسيمياء ، والكيمياء ، والتنجوم .

السحر قدرة حقيقة في بعض النقوص على التأثير في بعض العناصر . والسيمياء علم حادث صدر عند ظهور غلاة المتصوفة ، وجنوحهم إلى كشف حجاب الحس ، وظهور الخوارق ، استناداً إلى طبائع الحروف . وهو ثمرة الكشف يستجلّي أسرار الحروف .

والكيمياء تنظر في تحويل المعادن إلى ذهب ، وهذا لا يكون إلا عن طريق السحر والكرامات ، فهي معاناة في غير طائل .

وعلم النجوم يزعم معرفة الحوادث قبل وقوعها من معرفة قوى الكواكب وتأثيرها في عالم العناصر ، وهي صناعة فاسدة ، لأن «تأثير الكواكب في ما تحتها باطل ، اذ قد تبين في باب التوحيد ان لا فاعل الا الله .»<sup>١)</sup>

والفلسفة صناعة باطلة أيضاً .

لا تنفع الفلسفة في السياسة ، كما رأينا ، ولا تنفع في المعاش . واما في الدين فضررها كثير ، وقلما يسلم طالبها من معاطبها . واعتقادنا ان هذا الضرار هو الدافع الاكبر لحملة ابن خلدون على اهلها حملة الغزالي قبله ، بل هو يحوز الغزالي في تعجيزهم ، وابطال علومهم .

تعرّض الغزالي للطبيعتيات فقال إنها تدرس اجسام الطبيعة كما يدرس الطب جسم الانسان ، «وكما ليس من شرط الدين انكار علم الطب فليس من شرطه ايضاً انكار ذلك العلم الا في مسائل معينة ذكرناها في كتاب تهافت الفلسفه<sup>٢)</sup> . اما ابن خلدون فاحوال على الفلسفة بلوغ ايّ يقين في علم الطبيعتيات : يستخرج هذا العلم

(١) المقدمة : ص ١٠٠٥ .

(٢) المقدمة : بيروت : ١٩٥٩ : ص ٢٣ .

أحكامًا ذهنية عامة — او نواميس — ويطبقها على الاجسام . ولكن مطابقة الذهني العام للخارجي الجزئي غير اكيدة ، لانه قد يكون في هذا الجسم الخارجي شيء شخصي خاص يمنع مطابقة الذهني العام له . لهذا «ينبغي لنا الاعراض عن النظر فيها ، اذ هو من ترك المسلم ما لا يعنيه ، فان مسائل الطبيعتيات لا تهمنا في ديننا ولا معاشرنا ، فوجب علينا تركها<sup>١١</sup>».

ودرس الغزالي الاهيات ، فرأى فيها اكثر اغاليل الفلسفه ، فكفرّهم في امور وبداع في اخرى . اما ابن خلدون فحال هنا ايضاً معرفة اي شيء يقيني : ذلك ان الاهيات تدرس الروح ، والروح لا تقع تحت حواسنا لنعرف ما هي ، فذواتها محبوكة ، وصفاتها غامضة ، والبرهان عليها متذر ، والظن اقصى ما نبلغه فيها . « واذا كان انسنا نحصل بعد التعب والنصب على الظن فقط ، فيكيفنا الظن الذي كان اولاً ، فاي فائدة لهذه العلوم والاشغال بها؟»<sup>٢١</sup>

يرى ابن خلدون ان الفلسفه ادعوا اليقين في الطبيعتيات والاهيات وليس ثم يقين ، كما يرى انهم غالبا اجمالا في قدرة العقل فنسبوا اليه معرفة كل الوجود الحسي والعقلي ، بل معرفة كل ما يعلم الشرع . وبعلل وهمهم هذا بان المدرك يحصر الوجود في ما يدرك ، ويساوي المجهول بالمعلوم ، كالاعمى الذي يجهل الالوان فيعدّها معدومة . والفلسفه حصرت الوجود في ما يعلمون ، فادعوا معرفة كل موجود ، وما دروا ان الوجود اوسع نطاقاً من عقولهم ، وان الشرع يعلم ما لا يعلمون .

ولا يعني هذا تعطيل العقل : ان العقل ميزان صحيح ، ولكنه لا يزن كل شيء ، ومثال الفلسفه مع العقل «مثال رجل رأى الميزان

(١) مختارات : ص ٨٦ .

(٢) المختارات : ص ٨٦ .

الذى يوزن به الذهب فطعم ان يزن به الجبال<sup>١١</sup> . » العقل صحيح ، ولكن محدود .

ولابن خلدون رأى طريف في ما يلجمُ اليه العقل اذا اعتبرت الشبهات ، وارتبك الفهم ، وذاك باللجوء الى الله كي يفتح عليه بانواره فتحه على الغزالي قبله اذ شكَّ في اوليات العقل ، واستعصى عليه الخروج من شكه . قال ابن خلدون : « اذا ... عرض لك ارتكاك في فهمك ، او تشغيب بالشبهات في ذهنك ، فاطرح ذلك ... واخلص الى فضاء الفكر الطبيعي الذي فطرت عليه ، وسرح نظرك فيه وفرغ ذهنك فيه للغوص على مراميك منه ، واضعماً قدمك حيث وضعها اكبر النظار قبلك ، متعرضاً للفتح من الله كما فتح عليهم من رحمته ، وعلّمهم ما لا يعلمون . »<sup>٢١</sup>

ولكن اما للفلسفة من نفع ، في نظر ابن خلدون ؟ ليست ثمرة الفلسفة ادراك النفس سعادتها عن طريق المعرفة ، لأن هذه المعرفة ، كما رأينا ، ناقصة محدودة . واما ثمرتها الوحيدة هي شحد الذهن ليصبح حاداً دقيقاً ، قادرًا على تمييز الخطأ من الصواب في ما يأتي به من برهان ، او يردّ به على خصم . قال ابن خلدون في علم الفلسفة : « وليس له في ما علمنا الا ثمرة واحدة ، وهي شحد الذهن في ترتيب الادلة والحجاج لتحصيل مملكة الجودة والصواب في البراهين ... فليكن الناظر فيها متحرزاً جهده معاطفها ، ول يكن نظر من ينظر فيها بعد الامتناع من التشريعات . »

## ٥

هذه اهم آراء ابن خلدون في علوم عصره ، وهو مطلع عليها ، يحدّدها ، ويفصل مسائلها ، ويعدّ اهم ما كتب فيها ، واهم من

(١) اختارات : ص ٨٤ .

(٢) اختارات : ص ٨٨ .

(٣) اختارات : ص ٨٧ .

الـفـ من عـرب وـيـونـانـ . ولا يـفوـتـهـ انـ حـلـةـ الـعـلـمـ فـيـ الـاسـلـامـ اـكـثـرـهـ عـجمـ ، وـيـعـلـلـ ذـلـكـ بـيـداـوـةـ الـعـربـ اوـلـ عـهـدـهـ ، وـبـاـنـصـراـفـهـ إـلـىـ السـيـاسـةـ اوـ تـرـفـهـمـ عـنـ صـنـاعـةـ الـعـلـمـ بـعـدـ ذـلـكـ .

### الـتـعـلـمـ :

وـلـاـ يـقـصـرـ اـبـنـ خـلـدـوـنـ نـظـرـهـ عـلـىـ الـعـلـمـ ، بـلـ يـتـطـرـقـ إـلـىـ التـعـلـمـ لـيـعـطـيـ فـيـ آـرـاءـ طـرـيفـةـ .

يرـاعـيـ اـبـنـ خـلـدـوـنـ لـدـىـ المـتـعـلـمـ قـدـرـةـ الـذـاـكـرـةـ عـلـىـ الـحـفـظـ ، وـقـدـرـةـ الـعـقـلـ عـلـىـ الـفـهـمـ ، وـرـغـبـةـ التـعـلـمـ .

يرـاعـيـ قـدـرـةـ الـذـاـكـرـةـ ، اـذـ يـقـسـمـ الـعـلـمـ إـلـىـ غـائـيـةـ مـقـصـودـهـ لـذـاتـهـ كـالـكـلـامـ وـالـأـلـهـيـاتـ ، وـإـلـىـ آـلـيـةـ كـالـنـجـوـ وـالـمـنـطـقـ ، ثـمـ يـدـعـوـ إـلـىـ الـاـكـفـاءـ مـنـ الـعـلـمـ الـآـلـيـةـ بـالـضـرـورـيـ ، لـأـنـ الـاستـبـحـارـ فـيـهاـ تـضـيـعـ لـلـعـمـرـ ، وـعـائـقـ عـنـ تـحـصـيلـ الـعـلـمـ الـغـائـيـةـ .

وـيرـاعـيـ قـدـرـةـ الـذـاـكـرـةـ ، اـذـ يـنـهـيـ عـنـ تـكـلـيفـ التـعـلـمـ تـحـصـيلـ عـلـمـينـ غـائـيـنـ مـعـاـ ، لـأـنـ هـذـاـ تـقـسـيمـ لـبـالـهـ يـحـولـ دـوـنـ ظـفـرـهـ بـهـماـ ، بـلـ قـلـ اـنـ يـظـفـرـ بـاـحـدـهـماـ .

وـيرـاعـيـ قـدـرـةـ الـذـاـكـرـةـ ، اـذـ يـرـىـ كـثـرـةـ التـالـيـفـ فـيـ الـعـلـمـ الـواـحـدـ مـضـرـةـ بـالـتـعـلـمـ ، لـاـنـهـ تـكـثـرـ الـاـصـطـلـاحـاتـ ، وـتـعـدـدـ الـطـرـقـ ، فـعـسـرـ عـلـىـ الـحـفـظـ . مـنـ اـرـادـ عـلـمـ الـعـرـبـيـةـ ، مـثـلاـ ، اـحـتـاجـ إـلـىـ دـرـسـ كـتـابـ سـيـبـوـيـهـ وـمـاـ كـتـبـ عـلـيـهـ ، وـطـرـقـ الـبـصـرـيـنـ وـالـكـوـفـيـنـ ، وـجـمـيعـ مـاـ كـتـبـ فـيـ ذـلـكـ وـيـفـنـيـ الـعـمـرـ دـوـنـ بـلـوـعـ الـغـاـيـةـ .

وـيرـاعـيـ طـبـيـعـةـ الـذـاـكـرـةـ ، اـذـ يـحـذـرـ مـنـ تـقـطـعـ الـخـالـسـ ، وـالتـفـرـيقـ بـيـنـهـ ، لـأـنـ ذـلـكـ ذـرـيـعـةـ إـلـىـ نـسـيـانـ مـاـ دـرـسـ ، فـاـلـتـعـوـيـلـ فـيـ الـفـنـ الـواـحـدـ وـالـكـتـابـ الـواـحـدـ مـضـرـ بـالـتـحـصـيلـ .

اما قـدـرـةـ الـعـقـلـ عـلـىـ الـفـهـمـ فـيـ رـاعـيـهاـ اـبـنـ خـلـدـوـنـ ، اـذـ يـنـصـحـ بـلـاثـ:

ينصح اولاً بتدريج المتعلم ، بان تلقى عليه اصول العلم اولا ثم تُعرض وجوه الخلاف ويُخرج عن الاجمال ، ثم يُبحث كلّ مغلق وعويس ، يحصل هذا في ثلاثة تكرارات ، وقد يحصل لبعضهم في أقل من ذلك .

وينصح ثانياً بالاحجام عن استعمال المختصرات في التعليم : ان اختصار الانفاظ ، وحشو قليلها بالمعاني الكثيرة ، يجعلها اعسر على الفهم ، تخلوها من التكرار الضروري ، وحاجتها الى التأمل . اما الكتب البسيطة المطولة فاسهل وانفع .

وينصح ثالثاً بالرحلة ، ولقاء مشيخة العلم ، لأن المباشرة اقوى وسواناً ، ولا ان تعدد المتعلمين يجعل المتعلم يميز بين ما هو اصطلاحات وطريقة خاصة وبين العلم نفسه ، فيصفو الفهم ويعمق .

اما رغبة المتعلم في تحصيل العلم فقد يودي بها الشدة عليه ، العسف والقهر ، سببا في اصاغره . ان القهر يذهب بالنشاط ويدعو الى الكسل ، وانه يخيف الولد فيحمله على الكذب واللخت ، ويجعل من ذلك خلقاً وعادة . قال محمد بن ابي زيد : « لا ينبغي لمُؤدب الصبيان ان يزيد في ضربهم ، اذا احتاجوا اليه ، على ثلاثة اسوات شيئاً ». وهذا يعني ان ابن خلدون لا ينهى عن كل تخويف ، ويدعو الى الامعان في المساحة ، بل هو يستصوب ما قاله الرشيد لعلم ولده الامين : « لا تمرن بك ساعة الا وانت معنتم » فائدة تفيده ايها من غير ان تخزنه . ولا تعن في مسامحته فيستحلی الفراغ ويألفه . وقومه ما استطعت بالقرب والملالية ، فان أباها فعليك بالشدة والغلظة . »

## ما عِلْمُ العَمَرَانِ؟

رأينا العمران البشري في نوائِن خطوطه : في تكوينه وما يتأثر به من أقليم وتربة ؛ وفي بداولته وما تنتحله القبيلة من سبل المعاش ، ويشدّها من عصبية ، ويتولى فيها من رئاسات ، ومتاز به من خير وبأس ؛ وفي حضارته وما يجده فيها من وجوه معاش ، ومنازع ملك ، ورُقُّي علوم ، وتنهي اليه من هرم وفساد .

ولكن ما علم العمران الذي يدرس كل هذا ؟ ما طبيعته ؟ وما علاقته بال التاريخ ؟ وما شبهه بما يعرف عصرنا من علوم ؟

### ما عِلْمُ العَمَرَانِ؟

حدَّد ابن خلدون علم العمران ، اذ قال ، في معرض تبويض تاريخه : « الكتاب الأول : في العمران ، وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية ، من الملك والسلطان ، والكسب والمعاش والصناعات والعلوم ، وما للذك من العلل والأسباب<sup>١</sup> ». .

فعلم العمران اذًا موضوع هو العمران البشري او الاجتماع الانساني .

وله مسائل وهي ما يلحق هذا العمران من عوارض ذاتية . وقد ميَّز ابن خلدون بين ثلاثة انواع من العوارض : بين ما لا يمكن حدوثه في المجتمع ، وبين ما هو نادر الواقع ، وبين ما هو ذاتي طبعي مقارن له ضرورة . قال فيلسوفنا : « ننظر في الاجتماع البشري ،

---

(١) المقدمة : ص ٧ .

الذى هو العمران ، وغىّر ما يلحقه من الاحوال لذاته وبمقتضى طبعه ،  
وما يكون عارضاً لا يُعدّ به ، وما لا يمكن ان يعرض له . واذا فعلنا  
ذلك ، كان ذلك لنا قانوناً في تمييز الحق من الباطل في الاخبار ،  
والصدق من الكذب ، بوجهٍ برهاني لا مدخل للشك فيه .<sup>١)</sup>

ولا يكفى ابن خلدون بذكر عوارض المجتمع ، بل هو يعلّل  
هذه العوارض ، يعلّل ظهورها ، وتتطورها ، وتبدلها .... قال : « لم  
اترك شيئاً في اولية الاجيال والدول ، ... وما يعرض في العمران من دولة  
وملة ... ، وعزّة وذلة ، وكثرة وقلة ، وعلم وصناعة ، وكسب واصناعه ،  
واحوال متقلبة مشائعة ، وبدوٍ وحضر ، وواقعٍ منتظر ، الا واستوعبتُ  
جمله ، واوضحت براهينه وعلمه .<sup>٢)</sup> »

فعلم العمران اذاً يبحث في الاجتماع الانساني ، يدرس عوارضه الذاتية  
— من سياسية واقتصادية وثقافية — ، ويذكر ما لهذه العوارض من اسباب .

### علم العمران والتاريخ :

علم العمران ذكر ما يعرض في الاجتماع الانساني من « العوارض  
الذاتية » ، من الملك والسلطان ، والكسب والمعاش والصناعات والعلوم ،  
وما لذلك من العلل والاسباب .

وعلم التاريخ « خبر عن الاجتماع الانساني ، الذي هو عمران  
العالم ، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال مثل التوحش  
والتأنس ، والعصبيات ، واصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض ،  
وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها ، وما يتحله البشر باعماهم  
وساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصناعات وسائل ما يحدث في  
ذلك العمران بطبيعته من الاحوال .<sup>٣)</sup> »

١) المختارات : ص ٤٨ .

٢) المقدمة : ص ٨ .

٣) المختارات : ص ٤٧ .

من المقارنة بين التحديدين ، نجد ان موضوع علم العمران وعلم التاريخ واحد ، هو : الاجتماع الانساني ، وما يحدث في هذا الاجتماع من سياسة ، واقتصاد ، وعلوم ... فما الفرق بين العلمين ؟

الفرق هو ان التاريخ يروي وقائع حدثت في مكان معين ، وزمان معين ، وقائع فريدة لن ترافق ابداً هي هي . واما علم العمران فيرى ، في ما يرى التاريخ من وقائع متشابهة ، الخصائص المشتركة بينها : انه يرى العام في الخاص ، يرى في هرم دول مختلفة ، مثلاً ، الاسباب المشتركة التي أدت الى هذا الهرم . قال ابن خلدون ؛ «التاريخ إنما هو ذكر الأخبار الخاصة بعصر او جيل ، فاما ذكر الاحوال العامة للآفاق والاجيال والاعصار فهو أَسْ للمؤرخ تبني عليه اكثير مقاصده ، وتتبين به اخباره . »<sup>١١</sup>

ومن الفرق بين العلمين نرى الصلة بينهما : علم العمران يستند الى وقائع التاريخ ليستخلص طبائع المجتمع ، وقوانين التطور ، والمؤرخ يستند الى علم العمران ليميز بين الممكن والمستحيل ، بين الذاتي والعارض ، بين الصدق والكذب .

يستند علم العمران الى التاريخ ليرى ، مثلاً ، ان الحضارة غنية وترف ، ونحو صنائع وعلوم ، وزوال عصبية ، وهرم محظوظ ، ويستند المؤرخ الى علم العمران ، اذ يدرس مجتمعاً متحضرّاً ، فيفترض فيه مسبقاً هذه الخصائص ، ثم هو يقرن بينها ، يقرن ، مثلاً ، بين الاستباحار في الترف وبين زوال العصبية وضعف الحامية وفساد الاخلاق .

### علم العمران علم اجتماع وفلسفة تاريخ :

يدرس علم الاجتماع المجتمع الانساني متبايناً ظواهره العامة – ظواهر تفكيره ، وشعوره ، وعمله – ، متبايناً على تلك الظواهر .

وقد رأينا ان علم العمران يدرس المجتمع الانساني محدداً ظواهره العامة - او عوارضه الذاتية - معللاً هذه العوارض . فعلم العمران اذاً علم اجتماع ، وابن خلدون اول من رسم لهذا العلم ملامح واضحة . ولنذكر على سبيل المثال ، بعض ما جاء في علم العمران من مواضيع يدرسها علم الاجتماع :

- ١ اثر الجغرافية في المجتمع ، في العقول والاجسام والأخلاق ...
- ٢ اثر الاقتصاد في المجتمع : البداءة فقر والحضارة غنى . فقر البدو سلامة خلق ، وخشونة بأس ، وغنى الحضر ترف وضعف خلق وبأس .
- ٣ صلات التاجر بالشاري ، والمعلم بالتعلم ، والراعي بالرعية ، وعدد السكان بالكسب ...

اجل ان ابن خلدون لم تتسع نظرته الى كل ما يتسع له علم الاجتماع ، ولم يستعمل كل وسائله ، او دقة بحثه ، ولكن من الجهل انكار ما في علم العمران من ابحاث اجتماعية واضحة ، وان ناقصة . وابن خلدون بعد ، الفخور بما ابتدع ، يحسن نفسه ، ويدعو الى افتقاء أثره ، اذ يقول : «ونحن اهمنا الله الى ذلك الاماً ، واعذرنا على علم جعلنا سن بكره وجئن به خبره ، فان كنت قد استوفيت مسائله ، وميزت من سائر الصنائع انظاره وانحاءه ، ف توفيق من الله وهدایة ، وان فاتني شيء في احصائه ، واشتيبت بغیره مسائله ، فلننتظر الحقن اصلاحه ، ولي الفضل لاني نهجهت السبيل ، واوضحت له الطريق ، والله يهدي بنوره من يشاء .<sup>١)</sup> »

علم العمران علم اجتماع ، وهو ايضاً فلسفة تاريخ . يدرس التاريخ الواقع الجزئية ، ويتبين علم الاجتماع ما هو عام بين هذه الواقع ، اما فلسفة التاريخ فتحدد الهدف الذي يسير اليه

(١) المختارات : ص ٤٩ .

المجتمع ، والقانون العام الذي يخضع له سير التاريخ ، وقوانين الاجتماع . عين ابن خلدون غاية لكل مجتمع بشري ، هي الحضارة . والمجتمع البدوي ينتقل الى الحضارة ، كما رأينا ، اما عن طريق تقدم اقتصادي تسعف عليه التربة والمناخ ، واما عن طريق الفتح والاقتداء بالمتحضر المغلوب .

والحضارة غاية المجتمع ، هي ايضاً نهاية ، هرمه وفساده . قال ابن خلدون : « ان غاية العمران هي الحضارة والترف ، وانه اذا بلغ غايته انقلب الى الفساد واخذ في المرم ، كالاعمار الطبيعية للحيوانات . »<sup>(١)</sup> وتعني هذه النظرة ان البداوة افضل من الحضارة ، وان المجتمع يتتطور من حسن الى سيء ، من خشونة عيش ومتانة خلق وبأس الى ترف الحضرة وفساد اخلاق وجبن .

الحضارة غاية كل مجتمع ، وهي اذًا غاية البشرية ، وهدف التاريخ العام . اجل ان ابن خلدون ما نظر الى البشرية هذه النظرة الشاملة ، ولكن يمكن القول — بنوع من الاستنتاج المشروع — بان المجتمعات ستنتقل على التوالي من البداوة الى الحضارة ، وسيطر يوم تتحضر فيه البشرية كلها ، وقهر كلها .

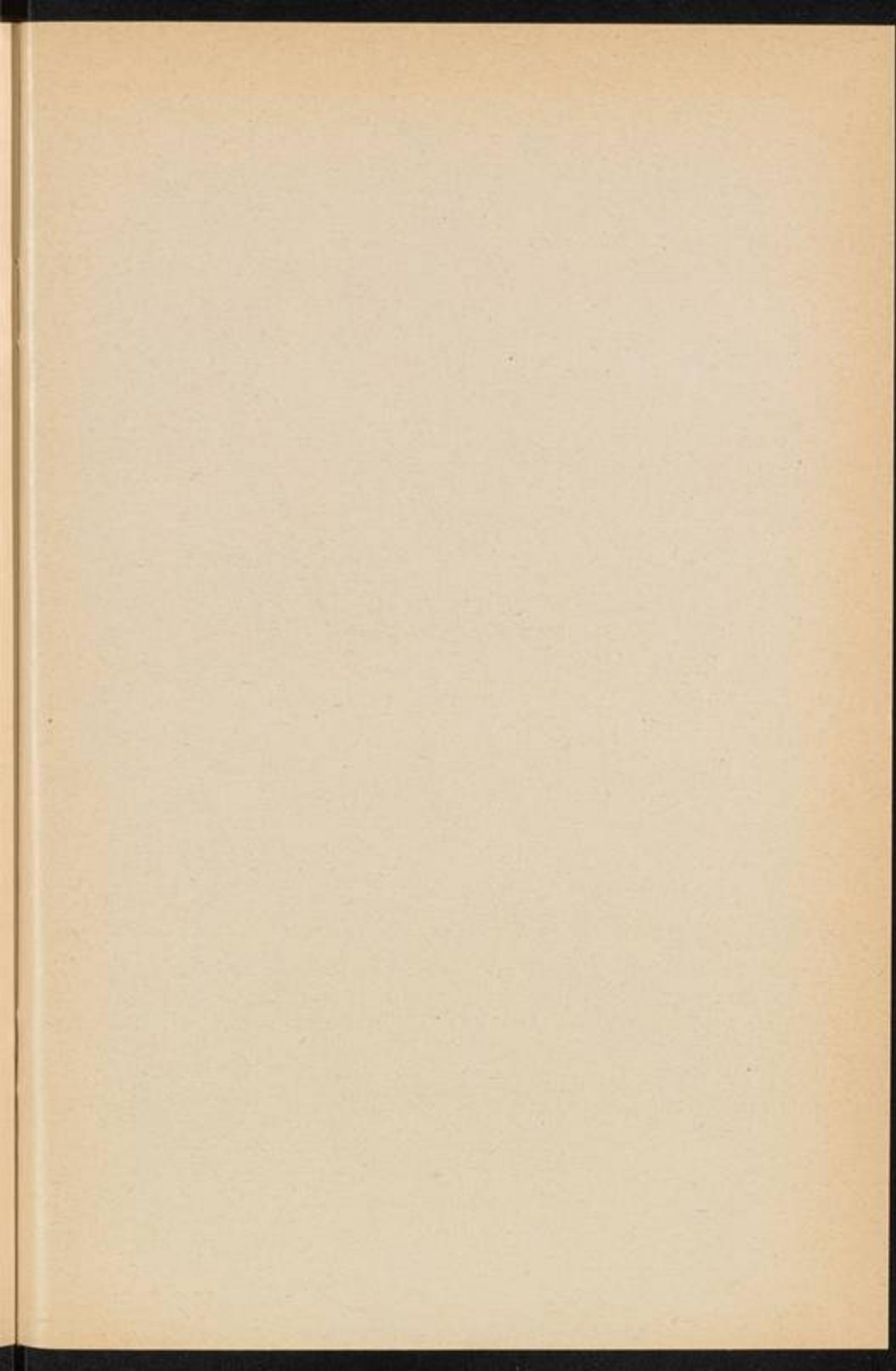
في علم العمران فلسفة تاريخ ، ولكنها فلسفة استوحها فيلسوفنا من تاريخ درسه ، تاريخ العرب خاصة ، فاختلط فيها الصواب بالخطأ . اما الصواب ففي شرحها للتاريخ العربي شرحاً صادقاً في مجلمه : في وصفها لنظام القبيلة ، وحياة البدو ، وفي اعتبارها الفتح سبيل تحضير ، وفي تشديدها على دور العصبية وتتنافس اهلها ، واصطدام المولى ، وفي تحديدها عمر الدولة بثلاثة اجيال ، وفي عدّها الحضارة هرماً وفساداً ... واما الخطأ ففي تعميم اراء ابن خلدون لشرح التطور البشري العام ، والتاريخ العام . اجل هناك مبادئ قابلة للتعميم ، ولكن لا يمكن تطبيق آراء ابن خلدون على كل مجتمع ، وكل التاريخ .

(١) المختارات : ص ٨٢ .

ان العصبية ، مثلاً ، التي يعظّم ابن خلدون من امرها ، قد فقدت  
أثرها في الدول الحديثة المتقدمة فـا عاد الحاكم يحكم بابناء عصبيته ،  
بل بتأييد الامة . وقل مثل ذلك في اعمار الاحسـاب والدول ، فـكـم اسرة  
نعمت بالـجد قـرونـاً ، وـكم حـضـارـة تـصـارـع الزـمـن ولا تـهـيـ . وـابـن خـلـدونـ  
بعـد لـم يـمـيز بـيـنـ الحـضـارـةـ وـالـحـضـارـاتـ :ـ الـحـضـارـاتـ تـهـيـ ، وـتـمـوتـ ،  
وـالـحـضـارـةـ ،ـ حـتـىـ يـوـمـنـاـ ،ـ تـقـدـمـ وـتـرـقـ .ـ اـمـاـ الـمـسـتـقـلـ السـحـيقـ ،ـ فـايـ  
نـظـرـ يـسـبـرـ اـغـوارـهـ ؟ـ !ـ

ان علم العمـانـ اـغـنـىـ مـاـ يـبـدوـ ،ـ لـاـولـ نـظـرـةـ ،ـ حـاوـ بـذـورـ عـلـومـ  
جـمـةـ ،ـ ثـمـرةـ يـانـعـةـ مـنـ ثـمـارـ التـفـكـيرـ ،ـ دـلـيلـ عـلـىـ عـقـمـ تـبـحـرـ ،ـ وـعـلـىـ  
طـرافـةـ فـلـسـفـيـةـ وـإـصـالـةـ .ـ

# مختارات



## في التَّارِيخ

### ١ - ظاهر التَّارِيخ وباطنه

ان فنَّ التَّارِيخ من الفنون التي تتداوُلها الْأَمْمَ والأَجْيَال ، وتنشَدُ  
إليه الرَّاكِبُ والرَّاحَل ، وتسمو إلى معرفته السُّوقَةُ والأَغْفَال ، وتنافس  
فيه الملُوكُ والأَقِيال<sup>١)</sup> ، ويتساوى في فهمه العلماءُ والجَهَال ، اذ هو في  
ظاهره لا يزيد على اخبار عن الأيام والدول ، والسوابق من القرون  
الأول ، تُنمِي<sup>٢)</sup> فيها الأقوال ، وتضرُب فيها الأمثال ، وتُطَرُّفُ بها  
الأندية اذا غصَّها الاحتفال ، وتوءُدي اليَنا شَأْنَ الْخَلِيقَةِ كَيْفَ تَقْلِبَتْ  
بَهَا الْأَحْوَال ، وَاتَّسَعَ لِلدوْلِ فِيهَا النَّطَاقُ وَالْمَجَال ، وَعَمِرَوا الْأَرْضَ حَتَّى  
نَادَى بَهُمُ الْأَرْتَحَال ، وَحَانَ مِنْهُمُ الزَّوَال ، وَفِي باطْنِه نَظَرٌ وَتَحْقِيقٌ ،  
وَتَعْلِيلٌ لِلكَائِنَاتِ وَمَبَادِيهَا دَقِيقٌ ، وَعِلْمٌ بِكَيْفِيَاتِ الْوَقَائِعِ وَاسْبَابِهَا  
عَمِيقٌ ، فَهُوَ لِذَلِكَ اصْبَلُ فِي الْحِكْمَةِ عَرِيقٌ ، وَجَدِيرٌ بِأَنْ يَعْدَ فِي  
عِلْمِهَا وَخَلِيقٌ .

### ٢ - المؤرخون السابقون وابن خلدون

وان فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا اخبار الأيام وجمعوها،  
وسلطوها في صفحات الدفاتر واودعوها، وخلطها المتنفلون بدسايسن  
من الباطل وَهَمُّوا فِيهَا او ابْتَدَعُوهَا ، وزخارف من الروايات المضَعَّفة  
لَفَقُوْهَا وَوَضَعُوهَا ، وَاقْتَنَى تلَكَ الآثارُ الْكَثِيرُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَاتَّبعُوهَا ،  
وَادَّهَا إِلَيْنَا كَمَا سَمَعُوهَا ، وَلَمْ يَلْاحِظُوا اسْبَابَ الْوَقَائِعِ وَالْأَحْوَالِ وَلَمْ

١) الأقبال : الروساد .

٢) نهى الحديث الى فلان : اسند .

يراعوها ، ولا رفضوا ترهات الاحاديث ولا دفعوها ، فالتحقيق قليل ، وطرف التنجيح في الغالب كليل ، والغلط والوهم نسيب للاحبار وخليل ، والتقليل عريق في الادميين وسليل ، والتطفل على الفنون عريض وطويل ...

## ٦

ولما طالعت كتب القوم ، وسبرت غور الامس واليوم ، نبهت عين القرحة من سنة الغفلة والنوم ، وسمت التصنيف من نفسي ، وانا المفلس ، احسن السوؤم ، فانشأت في التاريخ كتاباً ، رفعت به عن احوال الناشئة من الاجيال حجاباً ، وفصلته في الاخبار والاعتبار باباً باباً ، وابديت فيه لأولية الدول والعمران عللاً واسباباً ، وبنبته على اخبار الامم الذين عبروا المغرب في هذه الاعصار ... وهم العرب والبربر ... فهدبت مناحيه تهذيباً ، وقربته لفهم العلماء والخاصة تقريراً ، وسلكت في ترتيبه وتبويه مسلكاً غريباً ، واخترعته من بين المناحي مذهبها عجبياً ، وطريقة مبتدعة واسلوباً ، وشرحت فيه من احوال العمran والتمدن ، وما يعرض في الاجتماع الانساني من العوارض الذاتية ، ما يمتعك بعلل الكواين واسبابها ، ويعرفك كيف دخل اهل الدول من ابوابها ، حتى تزعز من التقليد يدك ، وتقف على احوال من قبلك من الايام والاجيال ومن بعدك ...

ورتبته على مقدمة وثلاثة كتب :  
المقدمة : في فضل علم التاريخ ، وتحقيق مذاهبه ، واللامع  
بمغالط المؤرخين .

الكتاب الأول : في العمran ، وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان ، والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ، وما للملك من العلل والاسباب .

الكتاب الثاني : في اخبار العرب واجيالهم ودولتهم منذ مبدأ الخلقة الى هذا العهد ، وفيه اللامع بعض من عاصرهم من الامم المشاهير

ودوهم ، مثل التبط والسريانيين والفرس وبني اسرائيل والقبط واليونان والروم والترك والافرنجة .

الكتاب الثالث : في اخبار البربر ومن اليهم من زَنَاتة ، وذكر اولياتهم واجيالهم ، وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول .

ثم كانت الرحلة الى المشرق لاجلاء انواره ، وقضاء الفرض والستة في مطافه وزاره ، والوقوف على آثاره في دواوينه واسفاره ، فافتاد ما نقص من اخبار ملوك العجم بتلك الديار ، ودول الترك في ما ملكوه من الاقطار ...

ولما كان مشتملاً على اخبار العرب والبربر ، من اهل المدن والوبار ، واللامع من عاصرهم من الدول الكُبُر ، وافصح بالذكري وال عبر ، في مبتدأ الاحوال وما بعدها من الخبر ، سميته : « كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، في ايام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الْاَكْبَر . »

### ٣ - فائدة التاريخ وصفات المؤرخ

اعلم ان فن التاريخ فن عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية ، اذ هو يوقفنا على احوال الماضين من الأمم في اخلاقهم ، والأنبياء في سيرهم ، والملوك في دوهم وسياستهم ، حتى تم فائدة الاقداء في ذلك لمن يرومها في احوال الدين والدنيا ، فهو يحتاج الى مأخذ متعددة ، و المعارف متنوعة ، وحسن نظر وثبت يفضيان بصاحبها الى الحق وينکبان<sup>١)</sup> به عن المزلاط والمغالط ، لأن الاخبار اذا اعتمدت فيها على مجرد النقل ، ولم تحكم اصول العادة ، وقواعد السياسة ، وطبيعة العمران والاحوال في الاجتماع الانساني ، ولا قيس الغائب منها بالشاهد ، والحاضر بالذاهب ، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم ، والخَيْد

(١) نكب به عن الطريق : نجاة

عن جادة الصدق . وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والواقع ، لاعتقادهم فيها على مجرد النقل غثاً او سميناً ، لم يعرضوها على اصواتها ، ولا قاسوها بأشباهها ، ولا سيروها بمعيار الحكم ، والوقوف على طبائع الكائنات ، وتحكيم النظر وال بصيرة في الاخبار ، فضلوا عن الحق ، وтаهوا في بيداء الوهم والغلط ...

فاذًا يحتاج صاحب هذا الفن الى العلم بقواعد السياسة ، وطبائع الموجودات ، واختلاف الامم والبقاء والاعصار في السير ، والأخلاق ، والعوائد ، والنحل ، والمذاهب ، وسائر الاحوال ، والاحتاطة بالحاضر من ذلك ، ومماطلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق ، او بون ما بينهما من الخلاف ، وتعليل المتفق منها وال مختلف ، والقيام على اصول الدول والملل ، ومبادئ ظهورها ، واسباب حدوثها ، ودعائي كونها ، واحوال القائمين بها واخبارهم ، حتى يكون مستوعباً لاسباب كل حادث ، واقفاً على اصول كل خبر ، وحينئذ يعرض الخبر المتناول على ما عنده من القواعد والاصول ، فان وافقها وجرى على مقتضاتها كان صحيحاً ، والا زيفه واستغنى عنه .

ومن الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الاحوال في الامم والاجيال بتبدل الاعصار ومرور الايام ، وهو داء دوي شديد الخطاء اذ لا يقع الا بعد احتساب متطاولة ، فلا يكاد يتقطن له الا الآحاد من اصل الخليقة . وذلك أن احوال العالم والامم وعوائدهم وتخلّمهم لا تدوم على وقيرة واحدة ، ومنهاج مستقرّ ، ائماً هو اختلاف على الايام والازمنة ، وانتقال من حال الى حال . وكما يكون ذلك في الاشخاص والاماكن والأوقات والأمسكار فكذلك يقع في الآفاق والاقطار والازمنة والدول ... فما دامت الامم والاجيال تتراقب في الملك والسلطان ، لا تزال الحالفة في العوائد والاحوال واقعة ...

ولنذكر هنا فائدة نختم كلامنا في هذا الفصل بها ، وهي ان

التاريخ اما هو ذكر الاخبار الخاصة بعصر او جيل . فاما ذكر الاحوال العامة للآفاق والاجيال والاعصار فهو أَسْ للمؤرخ تبني عليه اكثر مقاصده ، وتبين به اخباره .

#### ٤ - تحديد التاريخ واسباب الكذب فيه - علم العمران

اعلم انه لما كانت حقيقة التاريخ انه خبر عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم ، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال مثل التوحش والتأنس ، والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض ، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها ، وما ينحله البشر باعماهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصناع ، وسائل ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الاحوال .

ولما كان الكذب متطرقاً للخبر بطبيعته ، وله اسباب تقتضيه : فنها التشيعات للآراء والمذاهب ، فان النفس اذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر ، اعطته حقه من التمحيق والنظر ، حتى تبين صدقه من كذبه ، واذا خامرها تشيع لرأي او نحالة قبلت ما يوافقه من الاخبار لاول وهلة ، وكان ذلك الميل والتتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيق ، فتفق في قبول الكذب ونقله .

ومن الاسباب المقتضية للكذب في الاخبار ايضاً الثقة بالناقلين ، وتحميس ذلك يرجع الى التعديل والتجريح . ومنها الذهول عن المقاصد ، فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين او سمع ، وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه ، فيقع في الكذب . ومنها توهם الصدق ، وهو كثير وانما يجيء في الاكثر من جهة الثقة بالناقلين . ومنها الجهل بتطبيق الاحوال على الواقع ، لاجل ما يدخلها من التلبيس والتضليل ، فينقلها الخبر كما رأها ، وهي بالتصنع على غير الحق في نفسه .

ومنها تقرب الناس في الاكثر لاصحاب التجلة والمراتب بالشأن

والمدح ، وتحسين الاحوال ، وشاشة الذكر بذلك ، فتستفيض الاخبار بها على غير حقيقة ، فالتفهوم مولعة بحب الثناء ، والناس متطلعون الى الدنيا واسبابها من جاه او ثروة ، وليسوا في الاكثر براغبين في الفضائل ، ولا متنافسين في اهلها .

ومن الاسباب المقتضية له ايضاً ، وهي سابقة على جميع ما تقدم ، الجهل بطائع الاحوال في العمran ، فان كل حادث من الحوادث ، ذاتاً كان او فعلاً ، لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته ، وفي ما يعرض له من احواله ، فاذا كان السامع عارفاً بطائع الحوادث والاحوال في الوجود ومقتضياتها ، اعانته ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب ، وهذا ابلغ في التمحيص من كل وجه يعرض .

وكثيراً ما يعرض للسامعين قبولُ الاخبار المستحيلة ، وينقلونها ، وتوثّر عنهم ... واذا كان ذلك ، فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الاخبار بالامكان والاستحالة ان ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمran ، ونميز ما يلحظه من الاحوال لذاته وبمقتضى طبعه ، وما يكون عارضاً لا يُعتدَّ به ، وما لا يمكن ان يعرض له . واذا فعلنا ذلك ، كان ذلك لنا قانوناً في تمييز الحق من الباطل في الاخبار ، والصدق من الكذب ، بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه . وحيثند اذا سمعنا عن شيء من الاحوال الواقعه في العمran ، علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزيفه ، وكان ذلك لنا معياراً صحيحاً يتحرّى به المؤرخون طريق الصدق والصواب في ما ينقلونه ، وهذا هو غرض هذا الكتاب الاول من تأليفنا .

وكان هذا علم مستقلٌ بنفسه ، فانه ذو موضوع وهو العمran البشري والاجتماع الانساني ، ذو مسائل وهي بيان ما يلحظه من العوارض والاحوال لذاته واحدةً بعد اخرى ، وهذا شأن كل علمٍ من العلوم وضعياً كان او عقلياً ...

ونحن أهمنا الله إلى ذلك أهاماً ، واعتبرنا على علمٍ جعلنا سنَّ  
 بكره ، وجهينة خبره ، فان كنت قد استوفيت مسائله ، وميَّزت عن  
 سائر الصنائع انتظاره وإنحاءه ، فتوفيق من الله وهدایة ، وان فاتني شيءٌ  
 في احصائه ، واشتبهت بغيره مسائله ، فللناظر الحقق اصلاحه ، ولي  
 الفضل لاني نهجهت له السبيل ، واوضحت له الطريق .

## في العمران البشري على أجميله

### ١ - ضرورة الاجتماع والسلطة

الاجتماع الانساني ضروري ، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم : «الانسان مدنى بالطبع» ، اي لا بد له من الاجتماع ، الذي هو المدينة في اصطلاحهم ، وهو معنى العمران ، وبيانه ان الله سبحانه نخلق الانسان ، وركبته على صورة لا يصح حياتها وبقاوها الا بالغذاء ، وهذا الى التاسه بفطرته ، وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله . الا ان قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء ، غير موفيه له بمادة حياته منه . ولو فرضنا منه اقل ما يمكن فرضه ، وهو قوت يوم من الخطة ، مثلاً ، فلا يحصل الا بعلاج كثير من الطحن والعنجه والطبخ ، وكل واحد من هذه الاعمال الثلاثة يحتاج الى مواعين وآلات لا تم الا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخوري . وهب انه يأكله حباً من غير علاج ، فهو ايضاً يحتاج في تحصيله حباً الى اعمال اخرى اكثراً من هذه ، من الزراعة ، والخصاد والدراس الذي يخرج الحب من غلاف السنبل ، ويحتاج كل واحد من هذه الى آلات متعددة ، وصناعات كثيرة ، اكثراً من الاولى بكثير . ويستحيل ان تفي بذلك كله ، او بعضه ، قدرة الواحد ، فلا بد من اجتماع القدر الكثيرة من ابناء جنسه ليحصل القوت له وظم ، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لاكثر منهم باضعاف .

وكذلك يحتاج كل واحد منهم ايضاً ، في الدفاع عن نفسه ، الى الاستعانة بابناء جنسه ، لأن الله سبحانه لما ركب الطياع في الحيوانات

كلها ، وقسم القدر بينها ، جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة أكمل من حظ الانسان ... فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العجم ، سما المفترسة ، فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة ، ولا تفي قدرته ايضاً باستعمال الآلات المتعددة للمدافعة ، لكثرتها وكثرة الصنائع والمواعين المعدة لها . فلا بد في ذلك كله من التعاون عليه بابناء جنسه .

وما لم يكن هذا التعاون ، فلا يحصل له قوت ولا غذاء ، ولا تم حياته ، لما ركبه الله تعالى عليه من الحاجة الى الغذاء في حياته . ولا يحصل له ايضاً دفاع عن نفسه ، لفقدان السلاح ، فيكون فريسة للحيوانات ، ويعاجله الملائكة عن مدى حياته ، ويبيطل نوع البشر .  
وإذا كان التعاون ، حصل له القوت للغذاء ، والسلاح للمدافعة ، وتمت حكمه الله في بيئاته وحفظ نوعه .

فاذن هذا الاجتماع ضروري للتنوع الانساني ، والا لم يكمل وجودهم ، وما اراده الله من اعتبار العالم بهم ، واستخلاقه ايامهم . وهذا هو معنى العمran الذي جعلناه موضوعاً لهذا العلم ...

ثم ان هذا الاجتماع ، اذا حصل للبشر كما قررناه ، وتم عمran العالم بهم ، فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض ، لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم . وليس آلة السلاح ، التي جعلت دافعة لعدوان الحيوانات العجم عنهم ، كافية في دفع العدوان عنهم ، لانها موجودة لجميعهم ، فلا بد من شيء آخر يدفع عدوan بعضهم عن بعض . ولا يكون من غيرهم ، لتصور جميع الحيوانات عن مداركهم والهاماتهم ، فيكون ذلك الوازع واحداً منهم ، يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة ، حتى لا يصل احد الى غيره بعدوان . وهذا هو معنى الملك ، وقد تبين لك بهذا انه خاصة للانسان طبيعية ، ولا بد لهم منها .

## ٢ - اثر الاقليم

ان المعمور من هذا المنكشف من الارض انما هو وسطه ، لافراط الحر في الجنوب منه ، والبرد في الشمال . ولا كان الجاذب من الشمال والجنوب متضادين في الحر والبرد ، وجب ان تدرج الكيفية من كلها الى الوسط فيكون معتدلاً . فالاقليم الرابع اعدل العمران ، والذي حفافيه من الثالث والخامس اقرب الى الاعتدال ، والذي يليها من الثاني والسادس بعيدان من الاعتدال ، والاول والسابع ابعد بكثير .

فلهذا كانت العلوم ، والصناعات ، والمباني ، والملابس ، والاقوات ، والفوائد ، بل والحيوانات ، وجميع ما يتكون في هذه الاقاليم الثلاثة المتوسطة ، مخصوصة بالاعتدال ، وسكانها من البشر اعدل اجساماً والواناً واحلاقاً وادياناً ، حتى النباتات فانما توجد في الاكثر فيها ... واهل هذه الاقاليم اكمل ، لوجود الاعتدال لهم ، فتجدهم على غاية من التوسط في مساكنهم ، واقواتهم ، وصناعتهم ، يتخذون البيوت المنجددة بالحجارة ، المنقحة بالصناعة ، ويتناغون في استجادة الآلات وللمواعين ، ويذهبون في ذلك الى الغاية ...

واما الاقاليم البعيدة عن الاعتدال ، مثل الاول والثاني والسادس والسابع ، فاهلها ابعد من الاعتدال في جميع احوالهم . فبناؤهم بالطين والقصب ، واقواتهم من الذرة والعشب ، وملابسهم من اوراق الشجر يخصفونها عليهم ، او الجلد ، واكثرهم عرايا من اللباس ... واحلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات العجم ، حتى ليُنقل عن الكثير من السودان ، اهل الاقليم الاول ، انهم يسكنون الكهوف والغياض ، ويأكلون العشب ، وانهم متتوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضاً ... وكذلك احوالهم في الديانة ايضاً ، فلا يعرفون نبوة ، ولا يدينون بشرعية الا من قرب منهم من جوانب الاعتدال ...

قد توهם بعض النساين ، من لا علم لديهم بطبعات الكائنات ،

ان السودان هم ولد حام بن نوح ، اختصوا بلون السواد للدعوة كانت عليه من ابيه ... وفي القول بنسبة السواد الى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد ، واثرها في الهواء ، وفي ما يتكون فيه من الحيوانات . وذلك ان هذا اللون شمل اهل الاقليم الاول والثاني من مزاج هواهم للحرارة المتضاغعة بالجنوب ... ونظير هذين الاقليمين مما يقابلها من الشمال ، الاقليم السابع والسادس ، شمل سكانها ايضاً البياض من مزاج هواهم للبرد المفترط بالشمال ...

وقد نجد من السودان ، اهل الجنوب ، من يسكن الرابع المعتدل ، او السابع المنحرف الى البياض ، فتبين ان اعقابهم على التدرج مع الايام ، وبالعكس من يسكن من اهل الشمال ، او الرابع ، بالجنوب ، فتسود الوان اعقابهم ، وفي ذلك دليل على ان اللون تابع لزاج الهواء .

قال ابن سينا في ارجوزته في الطب :

بالزنج حرٌ غير الاجسادا  
حتى كسا جلودها سوادا  
والصقلب اكتسبت البياضا  
حتى غدت جلودها بضاضا

### ٣ - البرد افضل من الحر

ان فساد التكوين من جهة شدة الحر اعظم منه من جهة شدة البرد ، لأن الحر اسرع تأثيراً في التجفيف من تأثير البرد في الجمد . فلذلك كان العمran في الاقليم الاول والثاني قليلاً ، وفي الثالث والرابع والخامس متوسطاً لاعتدال الحر بنقصان الضوء ، وفي السادس والسابع كثيراً لنقصان الحر . وان كيفية البرد لا تؤثر عند اولها في فساد التكوين كما يفعل الحر ، اذ لا تجفيف فيها الا عند الافراط بما يعرض لها حينئذ من اليأس ، كما بعد السابع . فلهذا كان العمran في الربع الشمالي اكثر واوفر .

## ٤ - اثر الهواء في اخلاق البشر

قد رأينا من خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب ، فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع ، موصوفين بالحمق في كل قطر .

والسبب الصحيح في ذلك ... ان طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيواني وتفشيه ، وطبيعة الحزن بالعكس وهو انقباضه وتکافنه ... ولا كان السودان ساكنـين في الاقليم الحار ، واستولى الحر على امزجتهم ، وفي اصل تكوينهم ، كان في ارواحهم من الحرارة على نسبة ابدانهم واقليتهم ، فتكون ارواحهم بالقياس الى اهل الاقليم الرابع اشد حراً ، ف تكون اكثـر نفسياً ، ف تكون اسرع فرحاً وسروراً واكثر انبساطاً ، ويحيـي الطيش على اثر هذه . وكذلك يلحق بهم قليلاً اهل البلاد البحرية ، لما كان هواهـما متضاعفـاً الحرارة بما ينعكس عليه من اصوات بسيطـاً البحر واسعـته ، كانت حصـتهم من توابـع الحرارة في الفرح والخفـة موجودـة اكثـر من بلاد التلـول والجبـال الباردة ... واعتبر ذلك ايضاً باهل مصر ... كيف غـلب الفرح عليهم والخفـة والغفلة عن العـاقب حتى انـهم لا يـدـخـرون اقوـات سـنتهـم ولا شـهرـهم ، وعـامة ماـكلـهم من اسـواقـهم . ولا كانت فـاسـ من بلـاد المـغرب بالـعـكس مـنـها في التـوـغل في التـلـول الـبارـدة ، كـيف تـرى اـهـلـها مـطـرقـين اـطـراقـ الحـزن ، وـكـيف اـفـرـطاـ في نـظـرـ العـاقـب حتى انـالـرـجـلـمـنـهـمـ لـيدـخـرـ قـوتـ سـنتـينـ منـ حـبـوبـ الخـنـطة ...

وقد تعرـض المسـعودـي للـبـحـثـ عنـ السـبـبـ فيـ خـفـةـ السـودـانـ وـطـيشـهـمـ وكـثـرةـ الـطـربـ فـيهـمـ ، وـحاـولـ تـعلـيلـهـ ، فـلمـ يـأتـ بشـيءـ اـكـثـرـ منـ انهـ نـقلـ عنـ جـالـيـنـوسـ وـيعـقوـبـ بنـ اـسـحقـ الـكنـديـ انـ ذـلـكـ لـضـعـفـ اـدمـعـهـ ، وـماـ نـشـأـ عـنـهـ مـنـ ضـعـفـ عـقـوـهـ ، وـهـذـاـ كـلامـ لـاـ مـحـصـلـ لـهـ ، وـلـاـ بـرهـانـ عـلـيـهـ .

## ٥ - اثر الخصب والجوع

ان الاقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد بها الخصب ، ولا كل سكانها في رغد من العيش ، بل فيها ما يوجد لا هله خصب العيش من الحبوب والأدم والخنطة والفواكه ، لزكاء المناية واعتدال الطينة ووفر العمارة ، وفيها الارض الحرّة التي لا تُنبت زرعاً ولا عُشباً بالجملة ، فسكانها في شطوف من العيش ، مثل اهل الحجاز وجنوب اليمن ، ومثل الملايين من صنّاجة ، الساكنين بصحراء المغرب واطراف الرمال في ما بين البربر والسودان ، فان هؤلاء يفقدون الحبوب والأدم جملة وإنما اغذيتهم الالبان واللحوم ، ومثل العرب ايضاً الجائدين في القفار ... وتجد مع ذلك هؤلاء الفاقدين للحبوب والأدم من اهل القفار احسن حالاً في جسومهم واخلاقهم من اهل التلول المغمسين في العيش ، فالوانهم اصفي ، وابدانهم انقى ، وشكالهم اتم واحسن ، واخلاقهم ابعد من الانحراف ، وادهائهم انقب في المعرفة والادراكات . هذا أمر تشهد له التجربة في كل جيل منهم ...

والسبب في ذلك ، والله اعلم ، ان كثرة الاغذية وكثرة الاختلاط الفاسدة العفنة ورطوباتها تولد في الجسم فضلات رديئة ينشأ عنها بُعدُ اقطارها في غير نسبة ، ويتبّع ذلك انكساف الالوان ، وقبح الاشكال ، من كثرة اللحم كما قلنا ، وتغطّي الرطوبات على الاذهان والافكار بما يصعب الى الدماغ من ابخرتها الرديئة ، فتعجيء البلادة والغفلة والانحراف عن الاعتدال بالجملة . واعتبر ذلك في حيوان القرف ومواطن الجدب من الغزال والنعام والملها والزرافة والحملن الوحشية والبقر مع امثالها من حيوان التلول والاريات والمراعي الخصبة كيف تجد بينها بوناً بعيداً في صفاء اديعها ، وحسن رونقها وشكالها ، وتناسب اعضائها ، وحدة مداركها ...

واعلم ان اثر الخصب في البدن وحالاته يظهر حتى في حال الدين والعبادة ، فتجد المتفشين من اهل البادية او الحاضرة ، من يأخذ

نفسه بالجوع والتجافي عن الملاذ ، احسن ديناً واقبالاً على العبادة من اهل الترف والخصب . بل نجد اهل الدين قليلين في المدن والامصار ، لما يعمها من القساوة والغفلة المتصلة بالاكتار من اللحمان والادم ولباب البر ، ويختص وجود العباد والزهاد لذلك بالمتقشفين في غذائهم من اهل البوادي . وكذلك نجد حال اهل المدينة الواحدة في ذلك مختلفاً باختلاف حالها في الترف والخصب .

## في العصران البدوي

### ١ - اجيال البدو والحضر طبيعية

ان اختلاف الاجيال في احوالهم انما هو باختلاف نحلتهم من المعاش ، فان اجتماعهم انما هو للتعاون على تحصيله .

والابتداء بما هو ضروري منه وبسيط قبل الحاجي والكمالي . فنهم من يستعمل الفلاح من الغراسة والزراعة ، ومنهم من يتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنحل والدود ، لتناجها واستخراج فضلاتها . وهو لاء القائمون على الفلاح والحيوان تدعوهم الضرورة ، ولا بد ، الى البدو ، لانه متسع لما لا يتسع له الحواضر من المزارع والفنادن والمسارح للحيوان وغير ذلك ، فكان اختصاص هؤلاء بالبدو امراً ضروريآ لهم ، وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشرهم وعمرانهم من القوت والكن "والدفء" انما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ، ويحصل بُلغة العيش من غير مزيد عليه ، للعجز عما وراء ذلك .

ثم اذا اتسعت احوال هؤلاء المتحلين للمعاش ، وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفاه ، دعاهم ذلك الى السكون والدعة ، وتعاونوا في الزائد على الضرورة ، واستكثروا من الاقوات والملابس والتائق فيها ، وتوسعة البيوت ، واحتياط المدن والامصار للتحضر . ثم تزيد احوال الرفاه والدعة ، فتجيء عوائد الترف البالغة مبالغها في التائق في علاج القوت ، واستجدادة المطابخ ، وانتقاء الملابس الفاخرة في انواعها ، من الحرير والديباج وغير ذلك ، ومعالاة البيوت والصروح ، واحكام وضعها في تجديدها ، والالتماء في الصنائع في الخروج من

القوة الى الفعل الى غايتها . فيتخذون القصور والمنازل ، ويُجرون فيها المياه ، ويعالون في صرحتها ، ويبالغون في تنجيدها ، ويختلقون في استجادة ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس او فراش ، وآية او ماعون . وهولاء هم الحضر ومعناه الحاضرون اهل الامصار والبلدان . ومن هولاء من يتحلل في معاشه الصنائع ، ومنه من يتحلل التجارة ، وتكون مكاسبهم اثني وارفه من اهل البدو ، لأن احوالهم زائدة على الضروري ، ومعاشهم على نسبة وجدهم .

## ٢ - اهل البدو اقرب الى الخير من اهل الحضر

ان النفس ، اذا كانت على الفطرة الاولى ، كانت متيبة لقبول ما يرد عليها ، وينطبع فيها من خير او شر ... وبقدر ما سبق اليها من احد الخلقين ، تبعد عن الآخر ، ويصعب عليها اكتسابه . فصاحب الخير ، اذا سبقت الى نفسه عوائد الخير ، وحصلت لها ملكته ، بعده عن الشر ، وصعب عليه طريقه . وكذا صاحب الشر ، اذا سبقت اليه ايضاً عوائده .

واهل الحضر ، لكثره ما يعانون من فنون الملاذ ، وعوايد الترف ، والاقبال على الدنيا ، والعكوف على شهواتهم منها ، قد تلونت انفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر ، وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه ، يقدر ما حصل لهم من ذلك ، حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في احوالهم ، فتجدد الكثير منهم يقدعون في اقوال الفحشاء في مجالسهم وبين كبارتهم واهل محارمهم ، لا يصدّهم عنهم وارع الحشمة ، لما اخذتهم به عوائد السوء في التظاهر بالفواحش قوله . وعملاً .

واهل البدو ، وان كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم ، الا انه في المقدار الضروري ، لا في الترف ، ولا في شيء من اسباب الشهوات والملذات وداعيها ، فعوايدتهم في معاملاتهم على نسبتها . وما يحصل

فيهم من مذاهب السوء ومنذمومات الخلق بالنسبة إلى أهل الحضر أقل بكثير ، فهم أقرب إلى الفطرة الأولى ، وابعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة وقبحها ، فيسهل علاجهم عن علاج الحضر ، وهو ظاهر . وقد يتوضّح ، في ما بعد ، أن الحضارة هي نهاية العمران ، وخروجه إلى الفساد ، ونهاية الشر والبعد عن الخير .

### ٣ - أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر

إن أهل الحضر القوا جنوبهم على مهاد الراحة والدَّعَة ، وانغمسو في النعيم والترف ، ووكلوا أمرهم ، في المَدَافِعَة عن اموالهم وانفسهم ، إلى واليهم والحاكم الذي يسوسمهم والخامية التي تولت حراستهم ، واستناموا إلى الأسوار التي تحوطهم ، والحرز الذي يحول دونهم ، فلا تبήجهم هَيَّة<sup>١</sup> ولا يُنْفَرْ لهم صيد ، فهم غارون آمنون ، قد القوا السلاح ، وتولت على ذلك منهم الأجيال ، وتنزلوا منزلة النساء والولدان ، الذين هم عيال على أبي مثواهم ، حتى صار ذلك خُلُقاً يتنزل منزل الطبيعة .

واهل البدو ، لتفريدهم عن المجتمع ، وتوحشهم في الضواحي ، وبعدهم عن الخامية ، وانتباذهم عن الأسوار والآبواه ، قائمون بالمدَافِعَة عن انفسهم ، لا يكلونها إلى سواهم ، ولا يتقوون فيها بغيرهم ، فهم دائمًا يحملون السلاح ، ويتفقون عن كل جانب في الطريق ، ويتجرأون عن المجموع الا غراراً في الحالس ، وعلى الرجال وفرق الاقتباب ، ويتوجسون للنباتات<sup>٢</sup> والطيور ، ويتفردون في القرى والبلداء ، مدلين بيسهم واثقين بأنفسهم ، قد صار لهم الأساس خلقاً ، والشجاعة سجية يرجعون إليها متى دعاهم داع ، أو استنفرهم صارخ . واهل الحضر ، منها خالطوهم في البدائية ، أو صاحبوهم في السفر ، عيال عليهم ، لا

(١) هَيَّة : صوت مفرغ .  
(٢) النباتات : الاصوات الخفية .

يملكون معهم شيئاً من امر انفسهم ، وذلك مشاهد بالعيان ، حتى في معرفة النواحي والجهات ، وموارد المياه ومشاريع السبيل . وسيب ذلك ما شرحته ، واصله ان الانسان ابن عوائده ومألفوه ، لا ابن طبيعته ومزاجه ، فالذى الفه في الاحوال ، حتى صار خلقاً وملكة وعادة ، تنزل منزلة الطبيعة والجبلة .

#### ٤ - العصبية اىما تكون من الالتحام بالنسبة او ما في معناه

ان صلة الرَّحِيم طبيعى في البشر ، الا في القل ، ومن صلتها النُّورة على ذوى القربي واهل الارحام ان ينالم ضيم او تصييهم هلكة . فان القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه ، او العداء عليه ، ويجد لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك : نزعة طبيعية في البشر مذ كانوا .

فاما كان النسب المتبادل بين المتناصرين قرباً جداً ، بحيث حصل به الالحاد والالتحام ، كانت الوصلة ظاهرة ، فاستدعت ذلك بمحرّدتها ووضوحاها . واذا بعد النسب بعض الشيء ، فربما تنسى بعضها ، ويقى منها شهرة ، فتحمل على النصرة لذوى نسبة بالامر المشهور منه ، فراراً من الغضاضة التي يتوجهها في نفسه ، من ظلم من هو منسوب اليه بوجه .

ومن هذا الباب الولاء والخلف ، اذ نصرة كل احد على اهل ولايه وحلفه ، للالفة التي تلحق النفس من اهتمام جارها او قريبها او نسيبها بوجه من وجوه النسب ، وذلك لاجل اللحمة الحاصلة من الولاء مثل لحمة النسب او قرباً منها .

ومن هذا تفهم معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « تعلموا من انسابكم ما تصلون به ارحامكم » ، بمعنى ان النسب اىما فائدته هذا الالتحام ، الذي يوجب صلة الارحام ، حتى تقع المناصرة والنورة ، وما فوق ذلك مستغنى عنه ، اذ النسب امر وهى لا حقيقة له ، ونفعه

انما هو في هذه الوصلة والاتحام ، فإذا كان ظاهراً وأصبحاً حمل النفوس على طبيعتها من النعرة ، كما قلناه ، وإذا كان انما يستفاد من الخبر البعيد ، ضعف فيه الوهم ، وذهبت فائدته ، وصار الشغل به مجاناً ، ومن اعمال الله المنهي عنه .

## ٥ — الرياسة لا تزال في نصابها المخصوص من اهل العصبية

ان كل حي او بطن من القبائل ، وان كانوا عصابة واحدة لنسبيهم العام ، ففيهم ايضاً عصبيات اخرى لانساب خاصة هي اشد التحاماً من النسب العام لهم ، مثل عشير واحد ، او اهل بيت واحد ، او اخوة بنى اب واحد ، لا مثل بنى العم الاقربين او الابعدین . فهو لاء اقعد بنسبيهم المخصوص ، ويساركون من سواهم من العصائب في النسب العام ، والنعرة تقع من اهل المخصوص ومن اهل النسب العام ، الا انها في النسب الخاص اشد لقرب اللحمة .

والرياسة فيهم انما تكون في نصاب واحد منهم ، ولا تكون في الكل . ولا كانت الرياسة انما تكون بالغلب ، وجب ان تكون عصبية ذلك النصاب اقوى من سائر العصائب ، ليقع الغلب بها ، وتم الرياسة لاهلها . فإذا وجب ذلك ، تعين ان الرياسة عليهم لا تزال في ذلك النصاب المخصوص ، اهل الغلب عليهم ، اذ لو خرجت عنهم ، وصارت في العصائب الاجرى النازلة عن عصابتهم في الغلب ، لما تمت لهم الرياسة . فلا تزال في ذلك النصاب ، متناقلة من فرع منهم الى فرع ، ولا تنتقل الا الى الاقوى من فروعه ، لما قلناه من سر الغلب . لأن الاجتماع والعصبية بثبات المزاج للمتكون ، والمزاج في المتركون لا يصلح اذا تكافأت العناصر ، فلا بد من غلبة احدها ، والا لم يتم التكون . فهذا هو سر اشتراط الغلب في العصبية ، ومنه تعين استمرار الرياسة في النصاب المخصوص بها ، كما قررناه .

## ٦ - نهاية الحسب في العقب الواحد اربعة آباء

ان كل شرف وحسب فعدمه سابق عليه ، شأن كل محدث ،  
ثم ان نهاية في اربعة آباء .

وذلك ان باني الجد عالم بما عاناه في بنائه ، ومحافظ على الخلال  
التي هي اسباب كونه وبقائه . وابنه من بعده مباشر لابيه ، قد سمع  
منه ذلك واحذه عنه ، الا انه مقصر في ذلك تقصير السامع بالشيء  
عن المعانى له . ثم اذا جاء الثالث ، كان حظه الاقتفاء والتقليد خاصة ،  
قصسر عن الثاني تقصير المقلد عن المبتدئ . ثم اذا جاء الرابع ، قصر  
عن طريقتهم جملة ، واضاع الخلال الحافظة لبناء مجدهم واحتقرها ،  
ويتومهم ان ذلك البناء لم يكن بمعاناة ولا تكلف ، وانما هو امر وجب  
لهم ، منذ اول النشأة ، بمجرد انتسابهم ، وليس بعصابة ولا بخلال ،  
لما يرى من التجلة بين الناس ، ولا يعلم كيف حدوثها ولا سببها ،  
ويتومهم انه النسب فقط ، فيربأ بنفسه عن اهل عصبيته ، ويرى  
الفضل له عليهم ، وثوقاً بما ربى فيه من استتابتهم ، وجهلاً بما  
وجب ذلك الاستتابع من الخلال ، التي منها التواضع لهم ، والأخذ  
بمجامع قلوبهم ، فيحتقرهم بذلك ، فينتفضون عليه ويحتقرونه ،  
ويديلون منه سواه من اهل ذلك المبت ، ومن فروعه ، في غير ذلك  
العقب ، للاذعان لعصبيتهم ، كما قلناه ، بعد الوثوق بما يرضونه  
من خلاله ، فتنمو فروع هذا ، وتذوي فروع الاول ، وينهدم بناء  
بناته .

هذا في الملوك ، وهكذا في بيوت القبائل والامراء واهل العصبية  
اجمع ، ثم في بيوت اهل الامصار ، اذا انحطت بيوت نشأت بيوت  
اخري من ذلك النسب . «ان يشاً يُذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما  
ذلك على الله بعزيز» .

واشتراط الاربعة في الاحساب انما هو في الغالب ، والا فقد يدثر

البيت من دون الاربعة ويتلاشى وينهدم ، وقد يتصل امراها الى الخامس وال السادس ، الا انه في الخطاط وذهباب . واعتبار الاربعة من قبل الاجيال الاربعة : بان ، وبماشر له ، ومقلد ، وهادم . وهو اقل ما يمكن .

## ٧ - ان العرب اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب

والسبب في ذلك انهم امة وحشية ، باستحكام عوائد التوحش واسبابه فيهم ، فصار لهم خلقاً وجبلة ، وكان عندهم ملذوذأ لما فيه من الخروج عن ربيقة الحكم ، وعدم الانقياد للسياسة . وهذه الطبيعة منافية للعمaran ، ومناقضة له . فغاية الاحوال العادلة كلها عندهم الرحمة والتغلب ، وذلك مناقض للسكنون الذي به العمaran ، ومناف له . فالحجر ، مثلاً ، اما حاجتهم اليه لتصبئ اثافي للقدر ، فينقلونه من المباني ، ويخربونها عليه ، ويعدونه لذلك . والخشب ايضاً اما حاجتهم اليه ليعمروا به خيامهم ، ويتحذوا الاوتاد منه لبيوتهم ، فيخربون السقف عليه لذلك . فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو اصل العمaran . هذا في حالم على العموم .

وايضاً طبيعتهم اتهاب ما في ايدي الناس ، وأن رزقهم في ظلال رماحهم ، وليس لهم في اخذ اموال الناس حد ينتهي اليه ، بل كلما امتدت اعينهم الى مال او متع او ماعون ، اتهبوه . فاذا تم اقتدارهم على ذلك بالتغلب والملك ، بطلت السياسة في حفظ اموال الناس ، وخرب العمaran .

وايضاً فلانهم يتلفون على اهل الاعمال من الصنائع والحرف اعمالهم ، لا يرون لها قيمة ولا قسطاً من الاجر والثمن . والاعمال ، كما سندكره ، هي اصل المكاسب وحققتها . واذا فسدت الاعمال

(١) عمد السقف : اقامه بعاد ودعنه .

وصارت مجاناً ، ضعفت الآمال في المكاتب ، وانقضت الأيدي عن العمل ، وايذعر<sup>١</sup> الساكن ، وفسد العمران .

وايضاً فانهم ليس لهم عناية بالاحكام ، وزجر الناس عن المفاسد ، ودفع بعضهم عن بعض ، اثما هم ما يأخذونه من اموال الناس منها او مغراً . فإذا توصلوا إلى ذلك وحصلوا عليه ، اعرضوا عما بعده من تسديد احوالهم ، والنظر في مصالحهم ، وقهروا بعضهم عن اغراض المفاسد . وربما فرضوا العقوبات في الاموال ، حرصاً على تحصيل الفائدة والجباية والاستثار منها ، كما هو شأنهم . وذلك ليس بمعنى في دفع المفاسد ، وزجر المتعرض لها ، بل يكون ذلك زائداً فيها ، لأن تسهال الغرم في جانب حصول الغرض ، فتبقي الرعایا في ملكتهم كأنها فوضى دون حكم ، والفوضى مهلكة للبشر ، مفسدة للعمران .

وايضاً لهم متنافسون في الرئاسة ، وقل " ان يسلم احد منهم الامر لغيره ، ولو كان اباه او اخاه او كبير عشيرته ، الا في الاقل وعلى كره ، من اجل الحياة . فيتعدد الحكام منهم والامراء ، وتختلف الايدي على الرعية في الجباية والاحكام ، فيفسد العمران وينقض ...

وانظر إلى ما ملكوه ، وتعلموا عليه من الاوطان ، من لدن الخلقة ، كيف تقوض عمرانه ، واقفر ساكنه ، وبدلت الارض فيه غير الارض . فاليمن ، قرارُهم ، خراب الا قليلاً من الامصار . وعرق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذي كان للفرس اجمع . والشام لهذا العهد كذلك . وافريقيا والمغرب ، لما جاز إليها بنو هلال وبنو سليم ، منذ اول المائة الخامسة ، وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين ، قد لحق بها<sup>٢</sup> .

(١) ايذعر : تفرق .

(٢) هذه الجملة غامضة ، بسب استعمال الفاء استعمالاً ملتوياً مقلوباً ، وان يكن المعنى العام مفهوماً . وقد يكون وقع في الجملة تصحيف ، وقد يكون الاصل هكذا : وافريقيا ، لما جاز إليها بنو هلال ... من السنين ؛ والمغرب قد لحق بها ...

وعادت بسائطه خراباً كلها بعد ان كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمراناً . تشهد بذلك آثار العمran فيه ، من معالم وتماثيل البناء ، وشاهد القرى والمدار<sup>١١</sup> . « والله يرث الارض ومن عليها ، وهو خير الوارثين » .

---

(١) المدر : البناء بالطين .

## في العصر الحضاري

### ١ - انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة

ان الغلب ، الذي يكون به الملك ، إنما هو بالعصبية وبما يتبعها من شدة البأس وتعود الاقراس ، ولا يكون ذلك غالباً الا مع البداوة فطور الدولة في اوطاً ببداوة .

ثم اذا حصل الملك ، تبعه الرفه واتساع الاحوال ، والحضارة إنما هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والابنية وسائل العوائد المنزل واحواله ، فلكل واحد منها صنائع في استجادته والتأنق فيه تختص به ، ويتوسطها بعضها بعضاً ، وتتكثّر باختلاف ما تنزع اليه التغوس من الشهوات والملاذ والتنعم باحوال الترف ، وما تتلوّن به من العوائد . فصار طور الحضارة في الملك يتبع طور البداوة ضرورة لضرورة تبعية الرفه للملك .

واهل الدول ابداً يقلدون في طور الحضارة واحوالها للدولة السابقة قبلهم ، فاحوالهم يشاهدون ، ومنهم في الغالب يأخذون . ومثل هذا وقع للعرب ؛ لما كان الفتح ، وملكوا فارس والروم ، واستخدمو بناتهم وابناءهم ، ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة ، فقد حكى انهم قدم لهم المرافق فكانوا يحسبونه رقاعاً ، وعثروا على الكافور في خزائن كسرى فاستعملوه في عجنيهم ملحّاً ، وامثال ذلك .

فليا استعبدوا اهل الدول قبلهم ، واستعملوهم في مهنيهم وحاجات منازلهم ، واختاروا منهم المهرة في امثال ذلك ... أفادوهم علاج ذلك ،

والقيام على عمله ، والفنن في احواله . فبلغوا الغاية في ذلك ، وتطوروا بطور الحضارة والترف في الاحوال ، واستجادة المطاعم والمشارب والملابس والمباني والاسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخُرُق<sup>١٥</sup> ، وكذلك احوالهم في ايام المباهاة والولائم وليلي الاعراس ، فأتوا من ذلك وراء الغاية .

## ٢ - وجوه المعاش واصنافه ومذاهبه

اعلم ان المعاش هو عبارة عن ابتغاء الرزق ، والسعى في تحصيله ...

ثم ان تحصيل الرزق وكسبه : إما ان يكون بأخذه من يد الغير وانتزاعه بالاقتدار عليه ، على قانون متعارف ، ويسمى مغرماً وجباية ، وإما ان يكون من الحيوان ... او يكون من النبات في الزرع والشجر ... ويسمى هذا كله فلحاً ؛ وإما ان يكون الكسب من الاعمال الانسانية : إما في مواد بعينها ويسمى الصنائع من كتابة وتجارة وخياطة وحياكة وفروسية وامثال ذلك ، او في مواد غير معينة وهي جميع الامتهانات والتصرفات ، واما ان يكون الكسب من البضائع وإعدادها للاعوض ، اما بالنقلب بها في البلاد ، او احتكارها وارتقاب حواله الاسواق فيها ، ويسمى هذا تجارة .

فهذه وجوه المعاش واصنافه ، وهي معنى ما ذكره المحققون ... ، فانهم قالوا : «المعاش إمارة وتجارة وفلاحة وصناعة .» فاما الامارة فليست بمذهب طبعي للمعاش فلا حاجة بنا الى ذكرها ، وقد تقدم شيء من احوال الجبايات السلطانية واهلها ، في الفصل الثاني . واما الفلاحة والصناعة والتجارة فهي وجوه طبيعية للمعاش .

١) الخُرُق : الماء الرديء .

### ٣ - خلق التجار نازل عن خلق الاشراف والملوك

ان التجار ، في غالب احوالهم ، اثما يعانون البيع والشراء ، ولا بد فيه من المكاييسة ضرورة . فان اقتصر عليها اقتصرت به على خلقها وهي اعني خلق المكاييسة بعيدة عن المرءة ، التي يتخلق بها الملوك والاشراف . وأما ان استرذل خلقه بما يتبع ذلك في اهل الطبقة السفلية منهم ، من المحاكمة والغش والخلابة وتعاهد اليمان الكاذبة على الامان ردًا وقبولاً ، فاجدر بذلك الخلق ان يكون في غاية المذلة ...

ولذلك تجد اهل الرئاسة يتحامون الاحتراف بهذه الحرفة ، لاجل ما يكسب من هذا الخلق . وقد يوجد منهم من يسلم من هذا الخلق ويتحاماه ، لشرف نفسه وكرم جلاله ، الا انه في النادر بين الوجود .

### ٤ - الصنائع اثما تكميل بكمال العمران الحضري وكثثره

والسبب في ذلك ان الناس ، ما لم يستوفَ العمران الحضري وتتمدنَّ المدنية ، اثما همهم في الضروري من المعاش ، وهو تحصيل الاقوات من الخطة وغيرها . فإذا تمدنت المدينة ، وتزايدت فيها الاعمال ، ووافت بالضروري وزادت عليه ، صُرف الزائد حينئذ الى الكالات من المعاش . ثم ان الصنائع والعلوم اثما هي للانسان من حيث فكره الذي يتميّز به عن الحيوانات ، والقوت له من حيث الحيوانية والغذائية ، فهو مقدمٌ لضرورته على العلوم والصناعات ، وهي متاخرة عن الضروري .

وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتألق فيها حينئذ ، واستجادة ما يُطلب منها ، بحيث تتوفر دواعي الترف والثروة . وأما العمران البدوي ، او القليل ، فلا يحتاج من الصنائع الا البسيط ، خاصة المستعمل في الضروريات من نجارة او حداد او خياط او حائط او جزار . واذا وُجِدت هذه بعدُ ، فلا توجد فيه كاملة ولا

مستجادة ، وإنما يوجد منها بمقدار الضرورة ، اذ هي كلها وسائل إلى غيرها ، وليس مقصودة لذاتها . وإذا زخر بحر العمran ، وطلب فيه الكمالات ، كان من جملتها التأق في الصنائع واستجادتها ، فكملت بجمع متمامتها ، وتزايدت صنائع أخرى معها ، مما تدعوه إليه عوائد الترف واحواله ، من جزار ودباغ وخراز وصانع ، وامثال ذلك . وقد نتهي هذه الاصناف ، اذا استبحر العمran ، إلى ان يوجد فيها كثير من الكمالات ، ويتأنق فيها في الغاية ، وتكون من وجوه المعاش في مصر لتحولها ، بل تكون فائتها من اعظم فوائد الاعمال ، لما يدعوه إليه الترف في المدينة .

## ٥ - من طبيعة الملك الانفراد بالخد

وذلك ان الملك ، كما قدمناه ، إنما هو بالعصبية ، والعصبية متألفة من عصبات كثيرة تكون واحدة منها أقوى من الأخرى كلها ، فتغلبها ، وتستولي عليها ، حتى تصيرها جميعاً في ضمها ، وبذلك يكون الاجتاع ، والغلب على الناس والدول ...

وذلك العصبية الكبرى إنما تكون لقوم ، اهل بيت ورئاسة فيهم ، ولا بدّ ان يكون واحداً منهم رئيساً لهم ، غالباً عليهم ، فيتعين رئيساً للعصبيات كلها لغلب منتها جميعها .

واذا تعين له ذلك ، فمن الطبيعة الحيوانية خلق الكبر والأفة ، فإذا حينى من المساعدة والمشاركة في استبعادهم والتحكم فيهم ، ويحيى خلق آنفاله ، الذي في طباع البشر ، مع ما تقتضيه السياسة من انفراد الحكم ، لفساد الكل باختلاف الحكماء - لو كان فيما آلة الا الله لفسدنا - فتجد حينى انوف العصبيات ، وتفلج شكاوىهم عن ان يسموا الى مشاركته في الحكم ، وتقرع عصبيتهم عن ذلك ، وينفرد به ما استطاع ... وقد يتم ذلك للالول من ملوك

الدولة ، وقد لا يتم الا للثاني والثالث ، على قدر ممانعة العصبيات وقوتها ، الا انه امر لا بد منه في الدول .

## ٦ - من طبيعة الملك الترف

ان الامة ، اذا تغلبت وملكت ما بابدي اهل الملك قبلها ، كثُر رياشُها ونعمتها فتكثُر عوائدهم ، ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته الى نوافله ورقته وزينته ، ويذهبون الى اتباع من قبلهم في عوائدهم واحوالهم ، وتصير لتلك التوافل عوائد ضرورية في تحصيلها ، ويزعون مع ذلك الى رقة الاحوال في المطاعم والملابس والفرش والآنية ، ويفاخرُون في ذلك ، ويفاخرون فيه غيرهم من الامم ، في اكل الطيب ، ولبس الانبق ، وركوب الفاره<sup>١</sup> . ويناغي خلفهم في ذلك سلفهم ، الى آخر الدولة ، وعلى قدر ملكهم يكون حظهم من ذلك ، وترفهم فيه ، الى ان يبلغوا من ذلك الغاية التي للدولة ان تبلغها بحسب قوتها ، وعوائده من قبلها .

## ٧ - من طبيعة الملك الدعة والسكون

ان الامة لا يحصل لها الملك الا بالطلبة ، والمطالبة غايتها الغلب والملك ، واذا حصلت الغاية انقضى السعي اليها ، قال الشاعر :

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

فاما حصل الملك ، اقصروا عن المتابع التي كانوا يتکلفونها في طلبه ، وأثروا الراحة والسكون والدعة ، ورجعوا الى تحصيل ثمار الملك من المباني والمساكن والملابس فيبنون القصور ، ويُجرون المياه ، ويغرسون الرياض ، ويستمتعون باموال الدنيا ، ويؤثرون الراحة على

(١) الفاره : الجيد السير .

المتاعب ، ويتأذنون في احوال الملابس والمطاعم والآنية والفرش ما استطاعوا ، ويألفون ذلك ، ويورثونه من بعدهم من اجيالهم .

### ٨ — اذا استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالجند ، وحصول الترف والدعة اقبلت الدولة على الهرم

وبيانه من وجوه :

الاول انها تقتضي الانفراد بالجند ، كما قلناه . وما كان الجند مشتركاً بين العصابة ، وكان سعيهم له واحداً ، كانت همهم في التغلب على الغير والذبّ عن الحوزة أسوة في طموحها وقوة شకائـها ، ومرماهم الى العز جميعاً ، وهم يستطـبون الموت في بناء مجدهم ، ويـوثرونـونـ المـلكـةـ على فسـادـهـ . واذا انفردـ الواحدـ منهمـ بالـجـنـدـ ، قـرعـ عـصـيـتـهـ ، وكـبـحـ منـ اـعـنـتـهـ ، واستـأـثـرـ بـالـأـمـوـالـ دـوـنـهـ ، فـتـكـاسـلـواـ عـنـ الغـزوـ ، وـفـشـلـ رـيـخـهـ ، وـرـئـواـ<sup>١)</sup>ـ المـذـلةـ وـالـاستـبعـادـ . ثمـ ربـيـ الجـيلـ الثـانـيـ مـنـهـ عـلـىـ ذـلـكـ ، يـحـسـبـونـ مـاـ يـتـلـهـمـ مـنـ العـطـاءـ اـجـرـاـ منـ السـلـطـانـ هـمـ عـلـىـ الـحـايـةـ وـالـعـوـنـةـ ، لـاـ يـخـرـجـ فـيـ عـقـوـطـ سـوـاهـ . وـقـلـ اـنـ يـسـتـأـجـرـ اـحـدـ نـفـسـهـ عـلـىـ الـمـوـتـ . فـيـصـيرـ ذـلـكـ وـهـنـاـ فـيـ الدـوـلـةـ ، وـخـضـدـاـ مـنـ الشـوـكـةـ ، وـتـقـبـلـ بـهـ عـلـىـ مـنـاحـيـ الـضـعـفـ وـالـهـرـمـ لـفـسـادـ الـعـصـيـةـ بـذـهـابـ الـبـأـسـ مـنـ اـهـلـهـ .

والوجه الثاني ان طبيعة الملك تقتضي الترف ، كما قدمناه ، فتكثـرـ عـوـاـئـهـ ، وـتـرـيـدـ نـفـقـاتـهـ عـلـىـ اـعـطـيـاتـهـ ، وـلـاـ يـفـيـ دـخـلـهـ بـخـرـجـهـ ، فـالـفـقـيرـ مـنـهـ يـهـلـكـ ، وـالـمـتـرـفـ يـسـتـغـرـقـ عـطـاءـهـ بـتـرـفـهـ . ثمـ يـزـدـادـ ذـلـكـ فـيـ اـجـيـاـمـ الـمـتـأـخـرـةـ اـلـىـ اـنـ يـقـصـرـ عـطـاءـهـ كـلـهـ عـنـ التـرـفـ وـعـوـاـئـهـ ، وـتـنـسـهـمـ الـحـاجـةـ وـتـطـالـبـهـمـ مـلـوـكـهـمـ بـخـصـرـ نـفـقـاتـهـ فـيـ الغـزوـ وـالـحـرـوبـ ، فـلـاـ يـجـدـونـ وـلـيـجـةـ عـنـهـ ، فـيـوقـعـونـ بـهـمـ الـعـقـوـبـاتـ ، وـيـنـتـزـعـونـ مـاـ فـيـ اـيـديـ

١) الفوا .

الكثير منهم يستأثرون به عليهم ، او يوثرن به ابناءهم وصنائع دولتهم ، فيضعفونهم لذلك عن اقامة احوالهم ، ويضعف صاحب الدولة بضعفهم . وايضاً اذا كثر الترف في الدولة ، وصار عطاوهم مقصراً عن حاجاتهم ونفقاتهم ، احتاج صاحب الدولة ، الذي هو السلطان ، الى الزيادة في اعطائهم حتى يسد خللهم ، ويزيد عليهم . والجباية مقدارها معلوم ... ، فاذا وزعت الجباية على الاعطيات ، وقد حدثت فيها الزيادة لكل واحد بما حصل من ترفهم ، وكثرة نفقاتهم ، نقص عدد الحامية حينئذ بما كان قبل زيادة الاعطيات . ثم يعظم الترف ، وتكثر مقدار الاعطيات لذلك ، فينقص عدد الحامية ، وثالثاً ورابعاً الى ان يعود العسكر الى اقل الاعداد ، فتضعف الحماية لذلك ، وتسقط قوة الدولة ، ويتجاسر عليها من يحاورها من الدول او من هو تحت يديها من القبائل والعصائب ...

وايضاً فالترف مفسد للخلق بما يحصل في النفس من الوان الشر والسففة وعواوينها ، كما يأتي في فصل الحضارة ، فتذهب منهم خلال الخير التي كانت علامه على الملك ، ودليلاً عليه ، ويتصفون بما ينافقها من خلال الشر ، فتكون علامه على الادبار والانحراف ...

الوجه الثالث ان طبيعة الملك تقتضي الدعوة ، كما ذكرناه .  
واذا اخذوا الدعوة والراحة مائةاً وخلقاً ، صار لهم ذلك طبيعة وجلة شأن العوائد كلها وايلافها — فترى اجيالهم الحادثة في غضارة العيش ، ومهاد الترف والدعوة ، وينقلب خلق التوحش ، وينسون عوائد البداوة التي كان بها الملك ، من شدة البأس ، وتعود الانفراط ، وركوب الابداء ، وهداية القفر ، فلا يفرق بينهم وبين السوقه من الحضر الا في الثقافة والشاره ، فتضعف حمايتهم ، ويذهب بأسمهم ، وتخضد شوكتهم ، ويعود وبال ذلك على الدولة بما تلبس به من ثياب المرض . ثم لا يزالون يتلذتون بعوايد الترف والحضارة والسكنون والدعوة ورقة الحاشية في جميع احوالهم ، وينغمسمون فيها ، وهم في ذلك يبعدون عن البداوة

والخشونة ، وينسلخون عنها شيئاً فشيئاً ، وينسون خلق البساطة ، التي كانت بها الحياة والمدافعة ، حتى يعودوا عيالاً على حامية أخرى ان كانت لهم .

## ٩ - للدولة اعمار طبيعية كما للأشخاص

ان العمر الطبيعي للأشخاص ، على ما زعم الاطباء والمنجمون ، مائة وعشرون سنة ...

واما اعمار الدول ايضاً ، وان كانت تختلف بحسب القراءات ، الا ان الدولة في الغالب لا تدعو اعمار ثلاثة اجيال . والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط ، فيكون اربعين ، الذي هو انتهاء النمو والنشوء الى غايته ...

وانما قلنا ان عمر الدولة لا يدعو في الغالب ثلاثة اجيال ، لأن الجيل الاول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها ، من شظف العيش والبسالة والاقتراض ، والاشتراك في المجد ، فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم ، فحدّهم مرهف ، وجاذبهم مرهوب ، والناس لهم مغلوبون .

والجيل الثاني تحول حالم ، بالملك والترفة ، من البداوة الى الحضارة ومن الشظف الى الترف والخصب ، ومن الاشتراك في المجد الى انفراد الواحد به ، وكسى السابقين عن السعي فيه ، ومن عز الاستطالة الى ذل الاستكانة ، فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء ، وتؤنس منهم المهانة والخضوع . ويبقى لهم الكثير من ذلك بما ادركوا الجيل الاول ، وبashروا احوالهم ، وشاهدوا من اعترازهم ، وسعدهم الى المجد ، ومراهمهم في المدافعة والحياة ، فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية ، وان ذهب منه ما ذهب ، ويكونون على رجاء من مراجعة الاحوال التي كانت للجيل الاول ، او على ظنّ من وجودها فيهم .

واما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة ، كأن لم تكن .  
ويفقدون حلاوة العز والعصبية ، بما هم فيه من ملحة القهر . ويبلغ  
فيهم الترف غايتها بما تبنكونه<sup>١</sup> من النعيم وغضارة العيش ، فيصيرون  
عيالاً على الدولة ، ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم .  
وتسقط العصبية بالجملة ، وينسون الحياة والمدافعة والمطالبة ، وينسلبون  
على الناس في الشارة والزيري وركوب الخيل وحسن الثقافة يموهون بها ،  
وهم في الاكثر اجبن من النساء على ظهورها . فإذا جاء المطالب  
لهم ، لم يقاوموا مدافعته ، فيحتاج صاحب الدولة حينئذ الى الاستظهار  
بسواهم من اهل التجدة ، ويستكثر بالموالي ، ويصطعن من يغنى عن  
الدولة بعض الغناء ، حتى يأذن الله بانفراضها ، فتذهب الدولة بما  
حملت .

فهذه ، كما تراه ، ثلاثة اجيال ، فيها يكون هرم الدولة وتختلفها .  
وهذا كان انفراض الحسب في الجيل الرابع ، كما مر في ان المجد والحسب  
انما هو في اربعة آباء ...

ولا تعدو الدول في الغالب هذا العمر ، بتقرير قبله او بعده ،  
الا ان عرض له عارض آخر من فقدان المطالب ، فيكون الهرم حاصلاً  
مستولياً ، والطالب لم يحضرها . ولو قد جاء الطالب ، لما وجد مدافعاً ،  
« فإذا جاء اجلهم لا يستأنخرون ساعة ، ولا يستقدمون . »

فهذا العمر للدولة بمثابة عمر الشخص ، من التزييد الى سن الوقف ،  
ثم الى سن الرجوع . وهذا يجري على السنة الناس ، في المشهور ، ان  
عمر الدولة مائة سنة . وهذا معناه ، فاعتبره ، واتخذ منه قانوناً يصحح  
لك عدد الآباء في عمود النسب الذي تريده ، من قبل معرفة السنين  
الماضية ، اذا كنت قد استربت في عددهم ، وكانت السنون الماضية  
منذ اوطم محصلة لديك . فعد لكل مائة من السنين ثلاثة من الآباء ،

(١) تبنكونا فيه .

فإن نفذت على هذا القياس ، مع نقود عددهم ، فهو صحيح . وإن نقصت عنه بحيل ، فقد غلط عددهم بزيادة واحد في عمود النسب . وإن زادت بمثله ، فقد سقط واحد . وكذلك تأخذ عدد السنين من عددهم ، إذا كان محصلًا لديك . فتأمله تجده في الغالب صحيحاً .

١٠ - اطوار الدولة ، واختلاف احوالها وخلق اهلها باختلاف الاطوار  
ان الدولة تنتقل في اطوار مختلفة ، وحالات متتجدة ، ويكتسب القائمون بها في كل طور خلقاً من احوال ذلك الطور ، لا يكون مثله في الطور الآخر ...  
و الحالات الدولة واطوارها لا تعدو في الغالب خمسة اطوار .

الطور الاول طور الظفر بالبغية ، وغلب المدافع والمانع ، والاستيلاء على الملك ، وانتزاعه من ايدي الدولة السالفة قبلها . فيكون صاحب الدولة ، في هذا الطور ، اسوة قومه في اكتساب الحجد ، وجباية المال ، والمدافعة عن الحوزة والحماية ، لا ينفرد دونهم بشيء ، لأن ذلك هو مقتضى العصبية التي وقع بها الغلب ، وهي لم تزل بعد بحاجتها .

الطور الثاني طور الاستبداد على قومه ، والانفراد دونهم بالملك ، وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة . ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنياً باصطناع الرجال ، واتخاذ المولى والصنائع ، والاستكثار من ذلك بلجوع انوف اهل عصبيته وعشيرته ، المقاسمين له في نسبة ، الضاربين في الملك بمثل سهمه . فهو يدافعون عن الامر ، ويصدّهم عن موارده ، ويردّهم على اعقابهم أن يخلصوا اليه ، حتى يُقرَّ الامر في نصابه ، ويفرد اهل بيته بما يبني من مجده ، فيعياني من مدافعتهم ومغالبتهم مثل ما عاناه الاولون ، في طلب الامر ، او اشد ، لأن الاولين دافعوا الاجانب ، فكان ظهراً لهم على مدافعتهم اهل العصبية باجلهم ، وهذا يدفع الاقارب ، لا يظاهره على مدافعتهم الا الاقل من الاباعد ، فيركب صعباً من الامر .

الطور الثالث طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك ، مما تزع طباع البشر اليه من تحصيل المال ؛ وتخليد الآثار ، وبعد الصيت فيستفرغ وسعه في الجباية ، وضبط الدخول والخرج ، واحصاء النفقات والقصد فيها ، وتشييد المباني الخالفة ، والمصانع العظيمة ، والامصار المتعددة ، واهميا كل المرتفعة ، واجازة الوفود من أشرف الامم ووجوه القبائل ، وبث المعروف في اهله . هذا مع التوسيع على صنائعه وحاشيته ، في احواضه ، بماله والجاه ، واعتراض<sup>١</sup> جنوده ، وإدارار ارزاقهم ، وإنصافهم في اعطياتهم لكل هلال ، حتى يظهر اثر ذلك عليهم ، في ملابسهم وشكthem<sup>٢</sup> وشاراتهم ، يوم الزينة ، فيباهي بهم الدول المسالمة ، ويرهب الدول المخربة . وهذا الطور آخر اطوار الاستبداد من اصحاب الدولة ، لأنهم في هذه الاطوار كلها مستقلون بارائهم ، بانون لعزمهم ، موضحون الطرق لمن بعدهم .

الطور الرابع . طور التنوع والمسالمة . ويكون صاحب الدولة في هذا قانعاً بما بني اوّلوه ، سلماً لانتظاره من الملوك وأقتاله ، مقلداً للاضرين من سلفه ، فيتبع آثارهم حذو النعل بالنعل ، ويقتفي طريقهم باحسن مناهج الاقتداء ، ويرى ان في الخروج عن تقليدهم فساد امره ، وانهم ابصر بما بناوا من مجده .

الطور الخامس طور الاسراف والتبذير . ويكون صاحب الدولة ، في هذا الطور ، متلقاً لما جمع اوّلوه في سبيل الشهوات والملاذ ، والكرم على بطانته وفي مجالسه ، واصطناع اخوان السوء وحضوراء الدمن<sup>٣</sup> ، وتقليلهم عظميات الامور ، التي لا يستقلون بحملها ، ولا يعرفون ما يأتون ويدرون منها ، مستفسداً لكتار الاولئاء من قومه وصنائع سلفه ، حتى يضطغنواعليه ، ويتخاذلوا عن نصرته ، مضيئاً من جنده بما انفق

(١) بمعنى عرض .

(٢) اي سلاجم .

(٣) هي النسبة الخضراء بين المزاييل ، يمكن بها عن جمل باطنهم وقبح باطنهم .

من اعطياتهم في شهواته ، وحجب عنهم وجه مباشرته وفقده ، فيكون محرّباً لما كان سلفه يؤمنون ، وهادماً لما كانوا يبنون . وفي هذا الطور ، تحصل في الدولة طبيعة الفرم ، ويستولي عليها المرض المزمن ، الذي لا تكاد تخلص منه ، ولا يكون لها معه براء إلى ان تنقرض .

## ١١ - كيفية طرق الخلل للدولة

ان مبني الملك على اساسين ، لا بد منها : فالاول الشوكة والعصبية ، وهو العبر عنده بالجند . والثاني المال ، الذي هو قوام اولئك الجنود ، واقامة ما يحتاج اليه الملك من الاحوال . والخلل اذا طرق الدولة ، طرقها في هذين الاساسين ...

اعلم ان تمهيد الدولة وتأسيسها انما يكون بالعصبية ، وانه لا بد من عصبية كبرى جامدة للعصائب ، مستبعة لها ، وهي عصبية صاحب الدولة الخاصة من عشيرة وقبيلة . فاذا جاءت الدولة طبيعة الملك من الترف ، وجدع انوف اهل العصبية ، كان اول ما يخدع انوف عشيرته وذوي قرباه المقاومين له في اسم الملك ... وتفسد عصبية صاحب الدولة منهم ، وهي العصبية الكبرى ، التي كانت تجمع العصائب وتستبعدها ، فتنحل عروتها وتضعف شيكيمتها ، وتستبدل عنها بالبطانة من موالي النعمة وصنائع الاحسان ، وتتحذذ منهم عصبية ، الا انها ليست مثل تلك الشدة الشكيمية ، لفقدان الرحم والقرابة منها ...

ويحس بذلك اهل العصائب الاخرى ، فيتجاسرون عليه وعلى بطانته تجاسراً طبيعياً ، فيهلكم صاحب الدولة ، ويتبعهم بالقتل واحداً بعد واحد ... فتقل الحامية التي تنزل بالاطراف والغور ، فيتجاسر الرعاعيا على بعض الدعوة في الاطراف ، ويبادر الخوارج على الدولة ، من الاعياص<sup>١١</sup> وغيرهم ، الى تلك الاطراف لما يرجون

(١) ابناء الحسب .

حينئذ من حصول غرضهم بمحاباة اهل القاخصية لهم ، وأمنهم من وصول الحامية اليهم . ولا يزال ذلك يتدرج ، ونطاق الدولة يتضاعف ، حتى تصير الخوارج في اقرب الاماكن الى مركز الدولة ، وربما انقسمت الدولة عند ذلك بدولتين او ثلاث ، على قدر قوتها في الاصل ...

واما الخلل الذي يتطرق من جهة المال ، فاعلم ان الدولة في اولها تكون بدوية ، كما مرّ ، فيكون خلق الرفق بالرعايا ، والقصد في النفقات ، والتعسف عن الاموال ، فتجافي عن الامان في الجباية ، والتحذلقي ، والكيس في جمع الاموال وحسبيان العمال ، ولا داعية حينئذ الى الاسراف في النفقة فلا تحتاج الدولة الى كثرة المال .

ثم يحصل الاستيلاء ، ويعظم ويستفحلا للملك ، فيدعوه الى الترف ، ويكثر الانفاق بسيبه ، فتعظم نفقات السلطان واهل الدولة على العموم ، بل يتعدى ذلك الى اهل مصر ، ويدعوه ذلك الى الزيادة في اعطيات الجندي وارزاق اهل الدولة .

ثم يعظم الترف ، فيكثر الاسراف في النفقات وينتشر ذلك في الرعية ، لأن الناس على دين ملوكهم وعواوينهم . ويحتاج السلطان الى ضرب المكوس على اثمان البیاعات في الاسواق ، لادرار الجباية ، لما يراه من ترف المدينة الشاهد عليهم بالرفة ، ولا يحتاج هو اليه من نفقات سلطانه ، وارزاق جنده .

ثم تزيد عوائد الترف ، فلا تفي بها المكوس ، وتكون الدولة قد استفحلت في الاستطالة ، والقهر لمن تحت يدها من الرعايا ، فتمتد ايديهم الى جمع المال من اموال الرعايا ، من مكس او تجارة او نقد في بعض الاحوال ، بشبهة او بغير شبهة .

ويكون الجندي ، في ذلك الطور ، قد تجاسر على الدولة ، بما لحقها من الفشل ، والهرم في العصبية ، فتوقع ذلك منهم ، وتداوي بسکينة العطايا وكثرة الانفاق فيهم ، ولا تجد عن ذلك ولية .

ويكون جبة الاموال في الدولة قد عظمت ثروتهم ، في هذا الطور ، بكثرة الجباية وكوتها بأيديهم ، وبما اتسع لذلك من جاههم ، فيتجه اليهم باحتجان الاموال من الجباية ، وتفشو السعاية فيهم ، بعضهم من بعض ، للمنافسة والحدق ، فتعتمم النكبات والمصادرات ، واحداً واحداً ، الى ان تذهب ثروتهم ، وتتلذلش احوالهم ، ويفقد ما كان للدولة من الابهة والجلال بهم . واذا اصطلمت<sup>١١</sup> نعمتهم ، تجاوزتهم الدولة الى اهل الثروة من الرعاعيا سواهم .

ويكون الوهن في هذا الطور قد لحق الشوكة ، وضعفت عن الاستطالة والقهر ، فتنصرف سياسة صاحب الدولة حينئذ الى مداراة الامور ببذل المال ...

ويعظم المرم بالدولة ، ويتجاسر عليها اهل التواحي ، والدولة تنحل عراها ، في كل طور من هذه ، الى ان تفضي الى الملاك ؛ وتتعرض لاستيلاء الطلاب ، فان قصدها طالب انترعها من ايدي القائمين بها ، والا بقيت وهي تتلاشى الى ان تضمحل كالذبال في السراج اذا في زيتها وطفئها .

## ١٢ - حدوث الدولة وتجددها

ان نشأة الدولة و بدايتها ، اذا اخذت الدولة المستقرة في المرم والانتقام ، يكون على نوعين :

إما بان يستبدل ولاة الاعمال في الدولة بالقاصية ، عندما يتقلص ظلها عنهم ، فيكون لكل واحد منهم دولة ... وهذا النوع لا يكون بينهم وبين الدولة المستقرة حرب ، لأنهم مستقرون في رياستهم ، ولا يطمعون في الاستيلاء على الدولة المستقرة بحرب ، وانما الدولة ادركها المرم ، وتنقلب ظلها عن القاصية ، وعجزت عن الوصول اليها.

(١) استأنصلت .

والنوع الثاني بان يخرج على الدولة خارج ، من يجاورها من الام والقبائل ، اما بدعة يحمل الناس عليها كما اشرنا اليه ، او يكون صاحب شوكة وعصبية ، كبيراً في قومه ، قد استفح امره ، فيسمو بهم الى الملك ، وقد حدثوا به انفسهم ، بما حصل لهم من الاعتزاز على الدولة المستقرة ، وما نزل بها من الهرم ، فيتعين له ولقومه الاستيلاء عليها ، ويمارسونها بالطالة الى ان يظفروا بها .

### ١٣ - الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره ومؤذنة بفساده

ان الملك والدولة غاية للعصبية ، وان الحضارة غاية للبداوة ، وان العمران كله من بدأوة وحضارة ، وملك وسوق ، له عمر محسوس ، كما ان للشخص الواحد من اشخاص المكونات عمرًا محسوساً ...

ذلك ان الترف والنعمة ، اذا حصلا لاهل العمران ، دعاهم بطبيعة الى مذاهب الحضارة ، والتخلق بعوائدها . والحضارة ، كما علمت ، هي التفنن في الترف واستجادة احواله ، والكلف بالصناعات التي تؤمنق من اصنافه وسائل فنونه ، كالصناعات المهيأة للمطابخ ، او الملابس ، او المبني او الفرش ، او الآنية ، ووسائل احوال المنزل ، وللتأنق في كل واحد من هذه صنائع كثيرة ، لا يحتاج اليها عند البداوة ، وعدم التائق فيها .

واذا بلغ التائق في هذه الاحوال المنزلية الغاية ، تبعه طاعة الشهوات ، فتبتلون النفس في تلك العوائد بالوان كثيرة ، لا يستقيم حالمها معها في دينها ولا دنياها . اما دينها فلاستحکام صبغة العوائد ، التي يعسر نزعها . واما دنياها فلكرة الحاجات والمؤونات ، التي تطالب بها العوائد ، ويعجز الكسب عن الوفاء بها .

وبيانه ان المصر ، بالتفنن في الحضارة ، تعظم نفقات اهله . والحضارة تتفاوت بتفاوت العمران ، فتى كان العمران اكثـر ، كانت

الحضارة أكل . وقد كنا قدمنا ان المصر الكبير العمران يختص بالغلاء في اسواقه واسعار حاجته . ثم تزیدها المكوس غلاء ، لأن الحضارة انما تكون عند انتهاء الدولة في استفحالها ، وهو زمن وضع المكوس في الدول ، لكثره خرجها حينئذ كما تقدم . والمكوس تعود على البياعات بالغلاء ، لأن السوقه والتجار كلهم يحتسبون على سلعهم وبضائعهم جميع ما ينفقونه ، حتى في مؤونة انفسهم ، فيكون المكس لذلك داخلاً في قيم البياعات وأثمانها . فتعظم نفقات اهل الحضارة ، وتخرج عن القصد الى الاسراف ، ولا يجدون ولية عن ذلك ، لما ملكهم من اثر العوائد وطاعتھا ، وتذهب مكاسبهم كلها في النفقات ، ويتابعون في الاملاق والخصاصة ، ويفغل عليهم الفقر ، ويقل المستامون للمبایع ، فتكسد الاسواق ، ويفسد حال المدينة . وداعية ذلك كله افراط الحضارة والترف . وهذه مفسدات في المدينة ، وعلى العموم في الاسواق وال عمران .

واما فساد اهلها في ذاتهم ، واحداً واحداً على الخصوص ، فن الكد والتعب في حاجات العوائد ، والتحول بالوان الشر في تحصيلها ، وما يعود على النفس منضرر بعد تحصيلها ، بحصول لون آخر من الوانها . فلذلك يكثر منهم الفسق والشر والسفقة ، والتحليل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه ، وتنصرف النفس الى الفكر في ذلك ، والغوص عليه ، واستجاع الحيلة له ، فتجدهم اجراء على الكذب والمقامرة والغش والخلابة والسرقة ، والفحوج في الاعيان ، والربا في البياعات . ثم تجدهم ابصراً بطرق الفسق ومذاهبه ، والمحاورة به وبدواعيه ، واطراح الحشمة في الخوض فيه ، حتى بين الاقارب وذوي الحارم ، الذين تقتضي البداوة الحياة منهم في الاقداع بذلك . وتجدهم ايضاً ابصراً بالمكر والخديعة ، يدفعون بذلك ما عساهم ينالهم من القهر ، وما يتوقعونه من العقاب على تلك القبائح ، حتى يصير ذلك عادة وخلقاً لا كثراً لهم ، الا من عصمه الله . ويموج بحر المدينة بالسفلة من

أهل الاخلاق الديمومة ... واذا كثُر ذلك في المدينة او الامة ، تأذن الله بخربها وانقراضها . وهو معنى قوله تعالى : « اذا اردنا ان نهلك قرية ، امرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق علينا القول ، فدمرنها تدميرًا ». ووجهه ان مكاسبهم لا تفي ب حاجتهم ، لكثره العوائد ومطالبة النفس بها ، فلا تستقيم احوالهم . واذا فسدت احوال الاشخاص واحداً واحداً ، اختل نظام المدينة وخررت . وهذا ما يقوله بعض اهل الخواص ان المدينة ، اذا كثُر فيها غرس النارنج ، تأذن بالخراب ، حتى ان كثيراً من العامة يتحامى غرس النارنج بالدور ، وليس المراد ذلك ، ولا انه خاصية في النارنج ، وإنما معناه ان البساتين واجراء المياه هو من توابع الحضارة .

ومن مفاسد الحضارة ايضاً الانهاك في الشهوات ، والاسترسال فيها لكثره الترف ، فيقع التفنن في شهوات البطن من المالك والملاذ والمشارب ... فيفضي ذلك الى فساد النوع ... فافهم ذلك واعتبر به ان غاية العمran هي الحضارة والترف ، وانه اذا بلغ غايته انقلب الى الفساد ، وانحدر في الهرم كالاعمار الطبيعية للحيوانات .

#### ١٤ - العلوم ائماً تكثر حيث يكثر العمran وتعظم الحضارة

ان تعليم العلم ... من جملة الصنائع ، وقد كنّا قدمنا ان الصنائع ائماً تكثر في الامصار ، وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة ، والحضارة والترف ، تكون نسبة الصنائع في الجودة والكمية لأنه امر زائد على المعاش . فتى فضلت اعمال اهل العمran عن معاشهم ، انصرفت الى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الانسان ، وهي العلوم والصناعات . ومن تشوف بفطرته الى العلم من نشأ في القرى والامصار غير المتمدنة ، فلا يجد فيها التعليم الذي هو صناعي ، لفقدان الصنائع في اهل البدو كما قدمناه ، ولا بد له من الرحلة في طلبه الى الامصار المستباحة ، شأن الصنائع في اهل البدو .

## ١٥ – العلوم العقلية واصنافها

واما العلوم العقلية التي هي طبيعية للانسان ، من حيث إنه ذو فكر ، فهي غير مختصة بصلة ، بل يوجد النظر فيها لأهل الملل كلهم ، ويستوون في مداركها ومباحثها ، وهي موجودة في النوع الانساني منذ كان عمران الخليقة . وتسمى هذه العلوم علوم الفلسفة والحكمة ، وهي مشتملة على اربعة علوم : الاول علم المنطق ، وهو علم يعصم الذهن عن الخطأ في اقتناص المطالب المبهولة من الامور الحاصلة المعلومة ، وفائدته تبيّن الخطأ من الصواب في ما يلتبسه الناظر في الموجودات وعارضها ، ليقف على تحقيق الحق في الكائنات بمنتهى فكره .

ثم النظر بعد ذلك عندهم اما في المحسوسات من الاجسام العنصرية ، والمكونة عنها من المعدن والنبات والحيوان والأجسام الفلكية والحركات الطبيعية او النفس التي تباعث عنها الحركات ، وغير ذلك ، ويسمى هذا الفن بالعلم الطبيعي ، وهو الثاني منها .

وإما ان يكون النظر في الامور التي وراء الطبيعة من الروحانيات ويسمونه العلم الاهي ، وهو الثالث منها .

والعلم الرابع ، وهو الناظر في المقادير ، ويشتمل على اربعة علوم ، وتسمى التعاليم ، او لها علم الهندسة . وثانيةا علم الارقااطيفي ... وثالثها علم الموسيقى ... ورابعها علم الهيئة ...

فهذه اصول العلوم الفلسفية ، وهي سبعة : المنطق وهو المقدم منها ، وبعده التعاليم ، فالارقااطيفي اولاً ، ثم الهندسة ، ثم الهيئة ، ثم الموسيقى ، ثم الطبيعتيات ، ثم الاهيات .

## ١٦ – حدود العقل

لا تشقنَّ بما يزعم لك الفكر من انه مقتدر على الاحاطة بالكائنات واسبابها ، والوقوف على تفصيل الوجود كله ، وسفره رأيه في ذلك .

واعلم أن الوجود عند كل مدرك ، في بادئ رأيه ، منحصر في مداركه لا يعودوها ، والأمر في نفسه بخلاف ذلك ، والحق من ورائه . الا ترى الاصم كيف ينحصر الوجود عنده في المحسوسات الاربع والمعقولات ، ويسقط من الوجود عنده صنف المسموعات ؟ وكذلك الاعمى ايضاً يسقط عنده صنف المسموعات . ولو لا ما يردّهم الى ذلك تقليد الآباء والمشيخة من اهل عصرهم ، والكافرة ، لما اقرروا به ، لكنهم يتبعون الكافية في اثبات الاصناف ، لا بمقتضى فطرتهم ، وطبيعة ادراكهم . ولو سئل الحيوان الاعجم ونطق ، لوجدناه منكراً للمعقولات ، وساقطة لديه بالكلية . فاذا علمت هذا ، فعلل هناك ضرباً من الادراك غير مدركاتنا ، لأن ادراكاتنا مخلوقة محدثة ، وخلق الله اكبر من خلق الناس ، والمحصر مجھول ، والوجود اسع نطاقاً من ذلك ، والله من ورائهم محیط . فاتّهم ادراكك ومدركاتك في المحصر ، واتّبع ما امرك الشارع به من اعتقادك وعملك ، فهو احرص على سعادتك ، واعلم بما ينفعك ، لأنّه من طور فوق ادراكك ، ومن نطاق اسع من نطاق عقلك .

وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه ، بل العقل ميزان صحيح ، فاحكامه يقينية لا كذب فيها ، غير انك لا تطبع ان تزن به امور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الالهية ، وكل ما وراء طوره ، فان ذلك طمع في محال . ومثال ذلك مثل رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب ، فطبع ان يزن به الجبال . وهذا لا يدرك على ان الميزان في احكامه غير صادق . لكن للعقل حد يقف عنده ، ولا يتعدى طوره ، حتى يكون له ان يحيط بالله وصفاته ، فانه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه . وتقطن في هذا لغط من يقدّم العقل على السمع في امثال هذه القضايا ، وقصور فهمه واصيحة لرأيه ، فقد تبين لك الحق من ذلك .

## ١٧ - إبطال الفلسفة وفساد متحلها

ان هذه العلوم عارضة في العمran ، كثيرة في المدن ، وضررها في الدين كثير ، فوجب ان يصدع بشأنها ، ويكشف عن المعتقد الحق فيها .

وذلك ان قوماً من عقلاه النوع الانساني ، زعموا ان الوجود كله ، الحسي منه وما وراء الحسي ، تدرك ذواته واحواله ، بأسبابها وعللها ، بالانظار الفكرية ، والاقيسة العقلية ، وان تصحيح العقائد الاعيانية من قبل النظر ، لا من جهة السمع ، فاتها بعض من مدارك العقل ، وهو لاء يسمون فلاسفة ، جمع فيلسوف ، وهو باللسان اليوناني محب الحكمة ، فبحثوا عن ذلك ، وشرعوا له ، وحوموا على اصابة الغرض منه ...

وإمام هذه المذاهب ، الذي حصل مسائلها ، ودون علمها ، وسطر حجاجها ، فيما بلغنا في هذه الاحقاب ، هو ارسسطو المقدوني ، من اهل مقدونية ، من بلاد الروم ، من تلاميذ افلاطون . وهو معلم الاسكندر ، ويسموه المعلم الاول على الاطلاق ، يعنيون معلم صناعة المنطق ...

ثم كان من بعده في الاسلام من اخذ بتلك المذاهب ، واتبع فيها رأيه ، حذو النعل بالنعل ، الا في القليل ، وذلك ان كتب اولئك المتقدمين ، لما ترجمها الخلفاء ، من بني العباس ، من اللسان اليوناني الى اللسان العربي ، تصفحها كثير من اهل الملة ، واخذ من مذاهبيهم من اضله الله من متحلبي العلوم ، وجادلوا عنها ، واجتذبوا في مسائل من تفاريعها . وكان من اشهرهم ابو نصر الفارابي في المائة الرابعة ، لعهد سيف الدولة ، وابو علي بن سينا في المائة الخامسة ، لعهد نظام الملك من بني بويه باصبهان ، وغيرهما ...

واما البراهين التي يزعمونها على مدعياتهم في الموجودات ، ويعرضونها على معيار المنطق وقانونه فهي قاصرة ، وغير وافية بالغرض .

اما ما كان منها في الموجودات الجسمانية ، ويسمونه العلم الطبيعي ، فوجه قصوره ان المطابقة بين تلك النتائج الذهنية ، التي تستخرج بالحدود والاقيسة ، كما في زعيمهم ، وبين ما في الخارج ، غير يقيني . لأن تلك احكام ذهنية كلية عامة ، والموجودات الخارجية متشخصة بموادها ، ولعل في المواد ما يمنع من مطابقة الذهني الكلي للخارجي الشخصي ، اللهم الا ما يشهد له الحس من ذلك ، فدليله شهوده لا تلك البراهين ، فاين اليقين الذي يحذونه فيها ؟ ... انه ينبغي لنا الاعراض عن النظر فيها ، اذ هو من ترك المسلم لما لا يعنيه ، فان مسائل الطبيعيات لا تهمنا في ديننا ولا معاشنا ، فوجوب علينا تركها .

واما ما كان منها في الموجودات التي وراء الحس ، وهي الروحانيات ، ويسمونه العلم الالهي وعلم ما بعد الطبيعة ، فان ذواتها مجهولة رأساً ، ولا يمكن التوصل اليها ، ولا البرهان عليها . لأن تجريد المعقولات من الموجودات الخارجية الشخصية ائما هو ممكن في ما هو مدرك لنا ، ونحن لا ندرك الذوات الروحانية ، حتى نجد منها ماهيات اخرى ، بمحاجب الحس بينما وبينها ، فلا يتائق لنا برهان عليها . ولا مدرك لنا في اثبات وجودها ، على الجملة ، الا ما نجده بين جنبينا من امر النفس الانسانية ، واحوال مداركها ، وخصوصاً في الرويا التي هي وجدانية لكل احد . وما وراء ذلك من حقيقتها وصفاتها فامر غامض لا سهل الى الوقوف عليه . وقد صرخ بذلك محققوهم ، حيث ذهبوا الى ان ما لا مادة له لا يمكن البرهان عليه ، لأن مقدمات البرهان من شرطها ان تكون ذاتية . وقال كبارهم افلاطون ان الالهيات لا يصل فيها الى يقين ، وإنما يقال فيها بالاخلاق والابولى ، يعني الظن ، واذا كنا ائما نحصل بعد التعب والتصub على الظن فقط ، فيكونينا الظن الذي كان اولاً ، فاي فائدة لهذه العلوم والاشتغال بها ؟ ...

فهذا العلم ، كما رأيته ، غير واف بمقاصدهم التي حوموا عليها ، مع ما فيه من خالفة الشرائع وظواهرها ، وليس له فيما علمنا الا ثمرة

واحدة ، وهي شحد الذهن في ترتيب الأدلة ، والحجاج لتحصيل ملحة الجودة والصواب في البراهين ... فليكن الناظر فيها متحرزاً جهده من معاطبها ، وليكن نظر من ينظر فيها بعد الامتناع من التشريعات ، والاطلاع على التفسير والفقه . ولا يكبسَ أحد عليها ، وهو خلو من علوم الملة ، فقل " ان يسلم لذلك من معاطبها . والله الموفق للصواب وللحقيقة .

### ١٨ - وجه الصواب في تعليم العلوم

اعلم ان تلقين العلوم للمتعلم إنما يكون مفيدةً اذا كان على التدرج ، شيئاً فشيئاً وقليلًا قليلًا ، يُلقى عليه اولاً مسائل من كل باب من الفن هي اصول ذلك الباب ، ويقترب له في شرحها على سبيل الاجمال ، ويراعي في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يورده عليه ، حتى ينتهي الى آخر الفن ...

وكذلك ينبغي لك ان لا تطول على المتعلم في الفن الواحد ، والكتاب الواحد ، بتقطيع المجالس وتفريق ما بينها ، لانه ذريعة الى النسيان ، وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض ، فيعسر حصول الملحة بتفريقها ...

ومن المذاهب الجميلة ، والطرق الواجبة في التعليم ، ان لا يخالط على المتعلم علائين معاً ، فانه حينئذ قدْ ان يظفر بواحد منها ، لما فيه من تقسيم البال ، وانصرافه عن كل واحد منها الى نفهم الآخر ، فيستغلان معاً ويستصعبان ، ويعود منها بالخيبة .

### ١٩ - الفكر الانساني

ربما وقف الذهن في حجب الانفاظ بالمناقشات او عذر في اشتراك الادلة بشغب الجدال والشبهات ، فقد عن تحصيل المطلوب ...

فإذا ابتليت بمثل ذلك ، وعرض لك ارتباك في فهمك او تشغيب بالشبهات في ذهنك ، فاطرح ذلك ، وانبذ حجب الالفاظ وعواائق الشبهات واترك الامر الصناعي جلة ، واخلص الى فضاء الفكر الطبيعي الذي فطرت عليه ، وسرح نظرك فيه ، وفرغ ذهنك فيه للغوص على مراميك منه ، واضعأ قدمك حيث وضعها اكبر النثار قبلك ، متعرضاً للفتح من الله ، كما فتح عليهم من رحمته ، وعلّمهم ما لم يكونوا يعلمون .  
 فإذا فعلت ذلك ، اشرقت عليك انوار الفتح من الله بالظفر بعطوك ...  
 وحينئذ فارجع به الى قوله الادلة وصورها ، فافرغه فيها ، ووفه حقه من القانون الصناعي ، ثم اكسه صور الالفاظ ، وابرزه الى عالم الخطاب والمشافهة ، وثيق العرى ، صحيح البناء .

#### خاتمة

اتممت هذا الجزء الاول ، المشتمل على المقدمة ، بالوضع والتأليف ، قبل التنقيح والتذهيب ، في مدة خمسة اشهر آخرها متصرف عام تسعه وسبعين وسبعينا . ثم نقحته بعد ذلك ، وهذبته ، والحقت به تواريخ الام ، كما ذكرت في اوله وشرطته .



**رفع أ. علاء الدين شوقي أسكنه الله الفردوس**

# فهرس

٥	سيرة ابن خلدون . . . . .	٦٣
٩	التاريخ . . . . .	٦٧
١٢	علم العمران . . . . .	٦٩
١٣	العمان البشري على الجملة . . . . .	٧٣
١٧	العمان البدوي . . . . .	٧٧
٢١	العمان الحضري . . . . .	٨١
	الظاهرة الاقتصادية	٨٣
	الظاهرة السياسية	٨٤
	الظاهرة الثقافية	٨٥
٣٥	ما علم العمران؟ . . . . .	٩٣
٤١	مختارات . . . . .	٩٧
٤٣	في التاريخ . . . . .	٩٩
٥٠	في العمأن البشري على الجملة . . . . .	١٠٣
	صورة الاجتماع والسلطة	١٠٧
	أثر الأقليم	١٠٩
	البرد أفضل من الحر	١١١
	أثر الهواء في أخلاق البشر	١١٣
	أثر الخصب والجوع	١١٥
٥٧	في العمأن البدوي . . . . .	١١٧
	أجيال البدو والحضر طبيعية	١٢١
	أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر	١٢٣

أهل البدو اقرب الى الشجاعة من اهل الحضر  
العصبية ائما تكون من الاتصال بالنسب او ما في معناه  
الروبرية لا تزال في نصاها المخصوص من اهل العصبية  
نهاية الحسب في العقب الواحد اربعة آباء  
ان العرب اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الحرب

٦٦ . . . . . في العمران الحضري . . . . .

انقال الدولة من البداوة الى الحضارة  
وجوه المعاش واصنافه ومذاهبه  
خلق التجار نازل عن خلق الاشراف والملوك  
الصانع اما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرة  
من طبيعة الملك الانفراد بالجند  
من طبيعة الملك الترق  
من طبيعة الملك الدعة والسكن  
اذا استحكمت طبيعة الملك  
الدولة اعمار طبيعة كا للاشخاص  
اطوار الدولة  
كيفية طرائق الخلل للدولة  
حدوث الدولة وتجددها  
الحضارة غاية العمران ونهاية عمره  
العلوم اما تكثر ...  
العلوم العقلية واصنافها  
حدود العقل  
إبطال الفلسفة وفساد متحلها  
وجه الصواب في تعليم العلوم  
الفكر الانساني

# فلاسفة العرب

سلسلة دراسات ومحاضرات

ظهر منها :

- ١ - ابن الفارض (طبعة ثلاثة)
- ٢ - ابو العلاء المعري (طبعة ثلاثة)
- ٣ - ابن خلدون (طبعة ثلاثة)
- ٤ - الغزالى في جزئين (طبعة ثلاثة)
- ٥ - ابن طفيل (طبعة ثانية)
- ٦ - ابن رشد في جزئين (طبعة ثانية)
- ٧ - اخوان الصفاء (طبعة ثانية)
- ٨ - الكندي
- ٩ - الفارابي : في جزئين
- ١٠ - ابن سينا : في جزئين

للمؤلف ايضاً :

- اصول الفلسفة العربية
- قربان الاغانى : معرَّب عن طاغور : نجد
- طيور شاردة .

انجزت المطبعة الكاثوليكية في بيروت  
طبع هذا الكتاب في العشرين  
من شهر تموز سنة ١٩٦٦